أنطونيو وديڤيد

چيمال كارتشهادزه

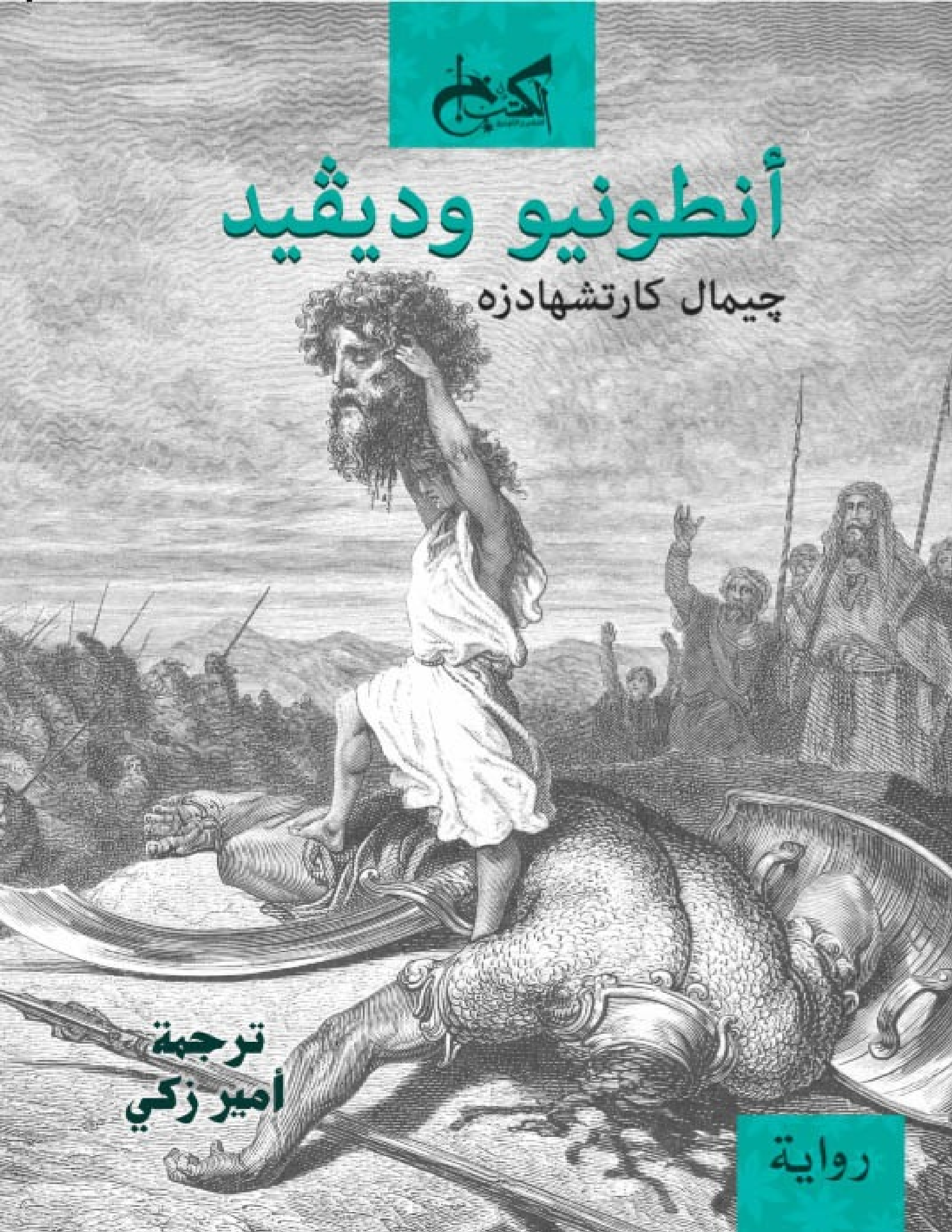

ترجمة
أمير زكي

رواية

اقرأ
مكتبة الكندل العربية

جيمال كارتشهادزه
ترجمة: أمير زكي

أنطونيو وديفيد

رواية

Karachkhadze Publishing 2013 ©

أنطونيو وديفيد

رواية

الطبعة الأولي :2014

رقم الأيداع : 15654/ 2014

الترقيم الدولي : 978-977-6306-54-7

الغـــــلاف: حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع

13 شارع 254 – دجلة– المعادى – القاهرة.

تليفون : 20225196569+ - 20225170678+

بريد اليكتروني : info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني: www.kotobkhan.com

This translation has been published with the financial support of Ministry of Culture and Monument Protection of Georgia and Program in Support of Georgian Book and Literature

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2014 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the author has been asserted. All rights reserved.

الكتاب
للنشر و التوزيع

فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

كارتشهادزه، چيمال

أنطونيو ودي‌ڤيد / چيمال كارتشهادزه، ترجمة أمير زكي.– ط1.– القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، 2014

198 ص ، 20 سم

تدمك: 978-977-6306-54-7

1- القصص الروسية

أ. زكي، أمير (مترجم)

ب. العنوان

رقم الإيداع : 15654

الطبعة الأولى 2014

جزء من كتاب "الحكايات والتقاليد والأخلاق؛ وصف للبلاد التي ارتحل إليها التاجر بارتولوميو دانيتي بسلام – بمساعدة الرب – يسرده بتفصيل وبدون تجميل دانيتي المذكور".

كما قلت في بداية هذا الكتاب، فقد أمضيت قسطًا كبيرًا من حياتي مسافرًا، وقد ارتحلت إلى العديد من البلدان، بعضها بناء على رغبتي، وبعضها بأمر البلاط الملكي. لقد أحببت السفر بالفعل، لم أستطع أبدًا أن أظل في وطني لوقت طويل. لا يمكنني إنكار أنه يراودني أحيانًا حزن عظيم، بينما أنا في الخارج، وأفتقد وطني، ولكن في اللحظة التي أعود فيها، أنجذب مجددًا، وعلى الفور إلى البلاد الأجنبية. في أي مكان أحل فيه، أتحصل اللغات المحلية بقدر إمكاني. في البداية كنت أتعلم اللغات الأجنبية بالخارج من أهل البلد؛ ولكن لاحقًا عندما لاحظت أنني ألتقط اللغات بسهولة، حاولت أن أتقنها من البداية، وقبل الرحيل. وأنصح كل الذين يحبون السفر بأن يقوموا بالشيء نفسه، لأن معرفة اللغات تجعل السفر أسهل على المسافر. بداية؛ فالمترجم يكلفك كَمًّا غير محدد من الوقت، وثانيًا: عندما تتحدث إلى أجنبي بلغته، فهذا يجلب الثقة وسيجعله يكشف روحه إليك على الفور. لقد لاحظت ذلك في كل مكان. يبدو أن هذه طبيعة إنسانية.. عندما وصلت إلى عمر الخامسة والستين، قررت أن أتوقف عن السفر. لقد كنت عجوزًا بالفعل، لم أعد أمتلك قوتي السابقة، وتسلل إليَّ الخوف تدريجيًا: ماذا لو صادفني الموت في مكان ما على الطريق وبقيت جثتي بالخارج؟ نحن البشر نملك دومًا رغبة غير مفهومة في أن نُدفَن على أرضنا، حيث يرقد أسلافنا. إلى جانب ذلك، إن مت بشكل غير متوقع، سيكون عليَّ أن آخذ معي المعرفة والخبرة اللتين جمعتهما أثناء أسفاري الممتدة، والكتاب الذي أكتبه الآن سيظل غير مكتوب. هل تظنون أنني أسعى إلى الشهرة والتبجيل كما يسعى العديد من الناس؟ لا؛ لقد تحملت الكثير من المخاطر والصعاب في أسفاري، ولم يتبقَ أي من الفخر الغض، والشهرة والتبجيل لا يعنيان شيئًا بالنسبة لي. الحياة البسيطة والمتقشفة بالنسبة لي هي الحياة الوحيدة اليوم. كتابة هذا الكتاب هي فقط التزام، طالما أنني اعتقدت دومًا أنه إذا حصل شخص ما على بعض المعرفة فعليه أن يتركها إلى شخص آخر، إن أخذها معه ستُعَدُّ خطيئة، وسوف يُحاسَب عليها في حياته التالية. لهذين السببين توقفت عن السفر. وربما لأنني صرت متعبًا وأتوق إلى الراحة، وهذا السبب الثالث يضاف إلى السببين الأولين. وبغض النظر عن أي سبب، فقد تركت السفر خلفًا، ومما آثار دهشة أقاربي ومعارفي، بِعْت منزلاً رائعًا، كان مكان أصدقائي المفضل، حيث كنا نجتمع فيه معًا بعد كل رحلة، وعادة ما نمضي الليالي في المزاح المحبب. ولقد بعت أيضًا ممتلكاتي في الريف. بعت كل ما أملك من أراضٍ ومنازل. وفي المقابل، اشتريت في جنوب الريف أرضًا مُشجِرة ومشمسة بجانب البحر وبنيت منزلاً، هذا الذي أكّد بشكل أكبر رأي معارفي وأصدقائي وأقاربي من أنني رجل غريب وعنيد. أثبت المنزل بالفعل أنه غير عادي، إلى جانب غرفة المكتب الواسعة، وغرفة النوم المجاورة وحجرات الخدم في الطابق الأرضي، هناك غُرَف في المكان بعدد البلاد التي زرتها. كل

غرفة تستحضر بلدًا أجنبيًا إلى الحياة، ومزينة بما يطابق الزي المحلي ومزخرفة بالأدوات المحلية. لسبع سنوات الآن ظللت أعيش في هذا المنزل مع ثلاثة خدم وطباخين فحسب. وتقريبًا لم أكن أتجاوز الفناء أبدًا، أجلس وأكتب في غرفة المكتب حتى منتصف النهار، وفي أسفل الحديقة بعد الظهر، أتنزه إلى جانب الجدول في المرج، أتحرك من غرفة إلى أخرى في المساء، أشاهد العديد من الهدايا القادمة من البلاد الأجنبية، وأستدعي الأحداث الماضية. يقارنون أحيانا حياتي بحياة المتوحد؛ ولكن أي نوع من المتوحد يمكن للمرء أن يتحدث عنه طالما لا يمر أسبوع من دون أن يدعوني الأصدقاء في مناسبتين أو ثلاث. أستقبل أصدقائي عادة في "بلد" أو آخر. أُعِدّ لهم المائدة بشكل ملائم. نجلس ونتحادث، ونشرب النبيذ ليمر الوقت. في بعض الأحيان أخبرهم بقصص عن أسفاري عندما يطلبون مني ذلك. هكذا أعيش وأنتظر حُكْم الرب.

أي أحد يرغب في كتابة كتاب عن السفر عليه أن يتأكد من أن يضع في الاعتبار اختلاف ميول الناس وتنوع أذواقهم. البعض مهتم بجغرافيا البلدان: المكان، الحدود، المناخ، التربة، طول الأنهار وكثافة الغابات؛ البعض يحب السياسة: الصراع على العروش، المؤامرات، الدسائس؛ البعض متحمس لفن البناء: وأي نوع من المنازل يبنونها، هل يستخدمون طوبًا أحمر أم لا، بِمَ يدعمون قلاعهم، ما الأحمال التي يمكن أن ترفعها جسورهم؛ البعض يريد أن يعرف عن طريقة الناس في الحياة: من خَلَفوا مَن، مِن أين جاءوا، متى استقروا في منطقتهم، ما الأعراف والقوانين التي لديهم، كيف يمارسون شعائرهم الدينية؛ البعض غير مهتم تمامًا بالبحث المدرسي، يفضلون القصص المسلية على أي شيء آخر: الحكايات المختلفة، المآسي، النوادر. لهذا السبب يجب أن يُكتب كتاب الأسفار ليجد المرء بداخله شيئًا مثيرًا للاهتمام، جديرًا بالذكر ومسلٍ بغض النظر عن عمر أو شخصية الإنسان الذي يمكن أن يفتحه. أحاول أن أن أراعي هذه القاعدة الخاصة: أصف بالتفصيل والدقة كل شيء رأيته بعيني أو سمعته من شخص آخر، وفي الوقت نفسه أحكي حكاية مسلية هنا أوهناك – طريفة أحيانًا، وجادة أحيانًا، وحزينة أحيانًا. وسأحكي اليوم قصة أنطونيو وديفيد، وإن صار القارئ حزينًا ومستغرقًا في التفكير مثل ضيوفي في الليلة الماضية، ستكون هذه إشارة إلى أنني قمت بمهمتي بشكل معقول.

اليوم كانت السماء تمطر منذ الصباح، وكانت رياح الخريف الباردة تهب. في مثل تلك الأوقات – عندما تهب الريح ويهبط المطر الرتيب على النافذة والسطح – تجتاحني الأفكار الحزينة وتقودني بعيدًا بحيث لا أستطيع الهرب. كان هذا هو الحال مجددًا بالأمس. كانت تمطر طوال اليوم بلا توقف، ولم أستطع الانغماس في عملي. جلست على مكتبي بلا جدوى، وحاولت بلا فائدة أن أستكمل الكتابة من حيث توقفت. جلست لوقت طويل أنظر بثبات إلى خارج النافذة. كان هناك ضباب كثيف على البحر، وكانت تمطر برتابة بحيث يمكن أن تعتقد أنها لن تتوقف. تَشَكَّلَت بِرَك صغيرة في الفناء هنا وهناك. وكانت الأوراق الأخيرة تسقط من على الشجر. استقرت كآبة ثقيلة من حولي وأصابت كل الأشياء. وعندما أحسست أنني لن أستمر في مهمتي، تركت عملي وبدأت أخطو هنا وهناك في الغرف. ضَغَط حزن ثقيل على قلبي، لم أستطع أن أستريح في مكان واحد. حينها ظَهَرَت أمامي كل "البلاد" تقريبًا، وفي النهاية دخلت الغرفة التي تدعى "كولخيس" [(1)]، تَسَرَّب الحزن تدريجيًا إلى جسدي وتَجَمَّد، وفجأة ظهر ديفيد أمام عين عقلي. ثم جلست بجانب

المدفأة، وبدأت في التحديق في الرماد البارد، واستسلمت للأفكار التي اجتاحتني.

عند الظهيرة جاء ضيوفي لزيارتي وتلاشى الحزن. بفضل الله كان لديَّ العديد من الأصدقاء، وهؤلاء أناس طالما خططوا للزيارة لا يثنيهم عن ذلك أي تَقَلُّب للطقس. كما قلت، فقد زاروني في الظهيرة. وكانت الطريق مستقيمة كالمسطرة من بوابة الفناء حتى الطريق المحفوف بالأشجار، ورأى الخدم العربة من بعيد. على الرغم من أن جميعهم جاءوا من قبل، فإن ضيوفي رغبوا في أن يتفحصوا المنزل مجددًا. أريتهم المنزل بنفسي. وأخذتهم إلى كل غرفة، وقدتهم في النهاية إلى "كولخيس" وقدمت لهم العشاء هناك. أَحَب أصدقائي "كولخيس" كثيرًا، تَفَحَّصوا الأدوات هناك ببهجة، وفي كل مرة يرونها كانت تراودهم أسئلة لي. أرضيت فضولهم بسعادة، قدمت لهم إجابات كاملة عن أسئلتهم، وشرحت بالتفصيل غرض هذه الأداة أو تلك، وفي الوقت نفسه أخبرهم بروتينية عن أسمائها باللغة الجورجية، التي أنطقها بصوت عالٍ، وكما يبدو لي فنطقها يبعث برائحة حلوة ومرة. بالأمس، فحصوا بشكل خاص الحزام الفضي والخنجر ومدحوهما كثيرًا، وهذا أسعدني للغاية لأنهما كانا يخصان ديفيد. مع قدوم المساء، أشعلنا النار، وسحبنا كراسينا القصيرة ذات الثلاث أرجل، وجلسنا حول الطاولة المنخفضة، جلب الخادم العشاء: الحبوب في آنية فخارية، وخبز ساخن من الذُرة، وجُبْن مصنوع لتوه، وأعشاب خضراء وأباريق من النبيذ. استمتعنا وقتها بعشائنا، وكان حديثنا يتغير دومًا من موضوع إلى آخر، كما يحدث عادة عندما تسترخي دائرة أصدقاء مقربة. ثم طلبوا مني أن أحكي لهم حكاية. وقفت وأخبرتهم بقصة أنطونيو وديفيد. وعندما وصلت للنهاية، حل الصمت، ولوقت طويل لم يخرق الصمت سوى طَرْق المطر. حَلّت الكآبة واستقرت عند أصدقائي، واستسلموا للتفكير. وفك النبيذ عقدة شفاهنا في النهاية. رحلوا عند منتصف الليل، طلبت منهم بجدية أن ينتظروا، ولكنهم لم يأبهوا لي، كانوا ثملين عندما استقلوا العربة ومضوا. رأيتهم يرحلون نحو البوابة، ثم عدت ودخلت الغرفة التي قضينا فيها المساء مجددًا، وجلست بجانب المدفأة وثبتَ نظري على الجمر المنطفئ. كانت أفكاري تتقافز نحو "كولخيس" البعيدة، تثير ذكرياتي الحزينة أكثر.

كانت ريح الخريف تهب مجددًا اليوم، ومجددًا كانت تمطر بلا توقف وبشكل رتيب. ولهذا السبب، قررت في الوقت الحالي أن أدع وصفي للزي الوطني الإثيوبي، وبدلاً من ذلك سأحكي لكم مغامرة أنطونيو وديفيد.

أنطونيو

كان الأمر كالتالي؛ حَدَث منذ أربعين عامًا. كنت في الثانية والثلاثين من عمري في هذا الوقت، وأنطونيو – ليرحم الله روحه الطاهرة – كان أكبر مني بخمس سنوات. في أحد الأيام استدعاني موظف كبير في البلاط الملكي – وكان يُشرِف على الشئون المتعلقة بالارتحال إلى البلاد الأجنبية – إلى القصر وأخبرني أنني سأذهب إلى "كولخيس" إلى جانب سبعة عشر رجلاً آخر. تلك المنطقة المعروفة لنا باسم "كولخيس" والتي كانت دولة قوية وموحدة، كما أخبرنا الكُتاب القدماء، انقسمت مع الوقت إلى العديد من الإمارات الصغيرة. اشتبك الأمراء الحاكمون – الذين أطلقوا على أنفسهم أحيانًا ملوكًا انطلاقًا من غرورهم – في عداء ومنافسة مع بعضهم، وبسبب ذلك لم يعودوا قادرين على مقاومة الأعداء الأجانب جيدًا. والآن أرسل واحد من هؤلاء الملوك – الأمراء وفدًا رسميًا إلى دولتنا وطلب المساعدة في الكفاح غير المتوازن الذي يقوم به شعبه ضد المسلمين دفاعًا عن حريتهم وعن عقيدتهم المسيحية. كان هذا الأمير الحاكم يطلب منا بشكل خاص قرضًا ليستأجر جيشًا مرتزقًا من القبائل البدوية بالهضاب، إلى جانب حرفيين، وخاصة الصناع الماهرين في صناعة الأسلحة واستخراج المواد الخام، وقساوسة سيدعمون بتبشيرهم ونموذجهم العقيدة المسيحية وسط السكان المحليين. وصلوا في القصر إلى قرار أنه قبل الإقرار بالقرض، سيدرسون أولاً البلد جيدًا. قرروا راضين إرسال حرفيين وقساوسة، وأضافوا إليهم تاجرًا، ووقع اختيارهم عليَّ. في هذا الوقت كنت قد زرت بالفعل العديد من البلاد، وكنت ماهرًا في التجارة، ولم يكن مفاجئًا أن يرسلوني أنا بشكل خاص. وكما نعلم فالسياسة لا تعرف الإيثار ولا الخيرية المحضة، فبالنسبة للبلد كانت مصلحته الذاتية هي الأهم، والهدف الأساسي لرحلتنا كانت معرفة أي فائدة ستعود على بلدنا إن قدمنا المساعدة للأمير الحاكم. وافقت على الذهاب راضيًا، لأن السفر إلى هذا البلد المذكور، الذي كان مصدر بهجة الكتاب القدامى، كان رغبتي، وقد سألت متى سنسافر. لم يستطع الموظف أن يخبرني الوقت بدقة (كان من المستحيل أنه يخفيه عني، مثلما كان يخفي هويات رفاقي في السفر في هذا الوقت)، أخبرني فقط أن لديَّ ستة أشهر تحت تصرفي، وبعد مُضيِّ الأشهر الستة عليَّ أن أكون جاهزًا في أي يوم يخبرني به.

كانت الأشهر الستة فترة كافية. وبصراحة، لم أكن أحتاج إلى أي وقت لما يُطلَق عليه عادة الإعداد للسفر. لقد كنت رَحَّالة بقلبي وروحي، ولو أخبرتني في الصباح أنني سأسافر مسافة بعيدة، سأعد كل شيء عند الظهيرة. ولكن الإعداد كان يعني شيئًا آخر في ذهني، وكنت بحاجة لتلك الأشهر الستة لأجمع المعلومات عن البلد الذي سأسافر إليه حتى لا أخسر وقتًا هناك، فيما يمكن أن أعرفه هنا. قبل السفر، لم يكن هناك شك في أنهم سيقدمون لنا المعلومات في البلاط الملكي ويزودوننا بالنصيحة والإرشاد، ولَكِن تلك المعلومات التي يجمعها الجواسيس ستكون في الأساس عن الشئون السياسية والعسكرية: صحيح أنها معلومات دقيقة وموثوق بها وحقيقية، ولكنها

قصيرة العمر، ومتقلبة، ملائمة أكثر لظروف اليوم، ولكن يمكن أن تتغير تمامًا غدًا. كنت بحاجة لمعلومات أكثر أساسية: كنت بحاجة إلى فهم طبيعة الناس، صفاتهم، عاداتهم وقوانينهم، بمعنى آخر، ما الذي تَشَكَّل واستمر على مر العقود (أو ما هو ثابت مع أسوأ الظروف).

في اللحظة التي تَرَكَت فيها القصر قررت فورًا تنفيذ خطتي. في هذا الوقت كان هناك رجلان جورجيان يعملان في القصر، كل منهما يشغل وظيفة كبيرة جدًا، وهذا في ذاته كان شهادة على قيمة شعبهما. قررت أن أعرف هذين الرجلين، ولهذه الغاية طلبت أن أزورهما،، بينما جعلتهما يعرفان الغرض من طلبي. وفاجئني أن كلاً منهما رفض بقوة ولكن بأدب. كنت شخصًا ذا اعتبار في القصر على العديد من المستويات، من ضمن هذا عائلتي المميزة ونَسَبي وأجدادي، وبشكل خاص بسبب خدمات أبي الجليلة للبلاط الملكي، إلى جانب أسفاري المعروفة بشكل واسع، ولهذه الأسباب فاجأني رفضهم. عندما شَارَكت دهشتي مع عدد من أصدقائي الذين كانوا يعرفون الرجلين جيدًا، ضحكوا وأخبروني أنه لم يكن عليَّ أن أخبرهما مقدمًا بسبب زيارتي. فيما يبدو كان هذان الرجلان يَحْذَران دومًا مخافة أن تلفت أصولهما الأجنبية النظر من دون سبب، كانت عائلتاهما تتحدثان بلغتنا، وكانا يتصرفان وكأنهما لا يعرفان لغتهما. كانا يتصرفان على هذا النحو حتى لا تصير أصولهما عرضة للاستغلال، وحتى لا يفقدان وظيفتيهما مع أي موقف سياسي غير مرغوب فيه ينشأ في البلاط. كون الإنسان المأجور يهتم بوظيفته هو أمر طبيعي تمامًا ولا يُحسَب عليه، ولكن أن يُنكِر المرء أصله الوطني في رأيي هو تصرف لا يليق ولا يغفره الإنسان ولا الله. ولكن ساعتها لم أكن أعرف بعد ما كان عليَّ أن أتعلمه في أسفاري. بشكل خاص، هناك بين هؤلاء الناس نوع غير مفهوم من القوة يقبض على مثل تلك الصفات المتناقضة كالتضحية الذاتية والخيانة، الحب، والكراهية، الشجاعة والجبن، الطيبة والشر. تحدثت بالتفصيل عن هذا سابقًا حين وصفت أعراف وأخلاق "كولخيس" وإيبريا[2]، وتَذَكُّر هذين الموظفين الكبيرين الآن يدعم فحسب الرؤية التي عَبَّرت عنها هناك مع مثال أعمق. هذان الرجلان يمثلان قُطْبا واحدًا في هذه الرؤية،، بينما القُطْب المقابل هو صانع الأكفان ضعيف البنية الذي عرفته بعد ذلك. أشار إليَّ أحد معارفي على الطريق إلى مكانه عندما عرف أنني أبحث عن جورجي يذكر بلده ويعرف لغته الأصلية. كان صانع الأكفان يقيم ورشته في قبو كبير مظلم قليلاً في قلب المدينة. في اللحظة التي عبرت فيها عتبة صانع الأكفان – وهو رجل نحيف أصلع طويل الأنف بشارب طويل – خرج سريعًا ليقابلني. قال لي: "تفضل بالدخول يا سيدي، مرحبًا بك في محل سكني"، مد يديه وانحنى باحترام، ثم قبل أن أستطيع قول أي شيء وقبل أن أتوقف لألتقط أنفاسي، بدأ في مدح سلعته، أكد: "إنها من أفضل المواد"، وكان ينقر بإصبعه على الأكفان ليدعم كلماته "موثوق بها وتُوَرَّث". عندما قاطعته قائلاً إنني لست بحاجة إلى كفن، تغير وجهه فجأة، وتلاشى النور من عينيه، أصبح حزينًا وبدأ في الشكوى بسبب أن لا أحد يموت الآن، وأصبح من الصعب إيجاد زبائن، وأن الله ترك مدينتنا تمامًا، ولوقت طويل الآن لم يعد هناك ذكر لأي وباء، والناس يتزايدون بشكل خطير، ولو استمر الحال على هذا النحو فلن يكون هناك موطئ لقدم على الأرض.. قاطعته مجددًا وأخبرته أن هذا لا يهمني، وأنني أردت أن أعرف عن أخبار بلده، وإن كان يعرف شيئًا أن يخبرني عنه. صَمَت فجأة وهو يستمع إلى ذلك، وكأنه فقد الكلمات، وحَدَّق بي بشكل غريب ونظر إلى عيني للحظة. ثم انفجرت مشاعره: "بلدي.."، ولكنه لم يكن قادرًا على الاستمرار، أجهش بالبكاء. بكى، وضرب على صدره

وكان يتمتم من آنٍ لآخر "بلدي" أو "وطني الحبيب" من قلبه. كنت مندهشًا من السبب الذي يبقيه هنا طالما يحب بلده بهذا القدر. فهمت ذلك لاحقًا، عندما عرفته جيدًا: لقد جاء إلى هنا صغيرًا، قال لي: "لم أكن أشعر بهذا ساعتها"، ولاحقًا تزوج من امرأة من أهل البلد وظل هنا. اعترف لي مرة مشتاقًا وكان وجهه سعيدًا وطيبًا في هذا الوقت:"إن انتشر وباء واحد صغير سيكون بإمكاني بيع كل أكفاني، وأضع يدي على النقود التي ستسمح لي بالسفر، وأهرب خلسة من عائلتي، لقد صرت متقدمًا في العمر بالفعل". ثم شرح لي في الوقت نفسه: "أود أن أُدفَن تحت تراب وطني، أنا أُفَضّل قبضة من تراب وطني على عائلتي". في البداية، لم أكن أفهم شيئًا من الرجل، ولكن في النهاية عندما صرت مقربًا منه، ورأيت داخل قلبه، أدركت العديد من الأشياء. الشيء الرئيسي هو أنني عرفت أن أستخرج بعض الخيوط الحقيقية والأصيلة من المشاعر المتشابكة. في النهاية أصبحت ماهرًا بشكل كبير في لصق الأجزاء المفيدة من المعلومات معًا عن وطنه المحبوب، على الرغم من أنه يجب أن يقال إنها كانت مهمة صعبة جدًا، لأننا في الوقت الذي نبدأ فيه الحديث عن أي موضوع، يبدأ على الفور بضرب صدره بقبضتيه المضمومتين ويُرضي نفسه بكلمات عامة مثل "التراب"، "الربيع"، "الطين"، "عظام أسلافنا" وكلمات أخرى شائعة في كل البلاد والأوطان. تلك الأجزاء غير المهمة والعديد من المعلومات التي قالها لم تكن مفيدة جدًا بالنسبة لي كما هو واضح، ولكن الرجل كان مفيدًا لي بطريقة أخرى: لقد تعلمت اللغة منه. ومن هذه الجهة هو قدَّم مهارة وسرعة بديهة عظيمتين. ابتكر بعض القوانين الخاصة، لم أقرأ عن أشباهها في الكتب، ولم أسمعها من أي أحد، ولقد كان معلمًا ممتازًا. دفعت له مالاً جيدًا مقابل ذلك. لم أعرف إن كان هذا المال كافيًا له أم لا ليترك عائلته ويرحل إلى الوطن الذي أصبح موضوعًا لرغبته، وإن كان يكفي هل يجرؤ أم لا على اتخاذ هذه الخطوة الخطرة والخالية من المشاعر في رأيي. في كل الأحوال، لم أرَ هذا الرجل فيما بعد، ولا سمعت شيئًا عن مكانه.

مرت الأشهر الستة سريعًا، وقبل أسبوع من المغادرة استدعوني إلى القصر مجددًا، وفي هذه المرة أحضروا الثمانية عشرة معًا وقدمونا إلى الرسل الكولخيين. وظهر أنني كنت أعرف بعضًا من رفاقي المسافرين، في حين أن البعض الآخر كنت أقابله لأول مرة. رأيت أنطونيو لأول مرة. أذكر ذلك وكأنه بالأمس: اجتمع سبعة عشرة بالفعل قبل أن يُفتَح الباب ويدخل أنطونيو. كان متوسط الطول، قصيرًا وبدينًا وعريض المنكبين. كانت لديه لحية حمراء قاتمة قصيرة، جبهة عريضة، شعر كستنائي، أنف مستقيم واسع المنخرين، وعينان بنيتان نصف مغلقتين لا تنظران من الداخل إلى الخارج، ولكن بالأحرى من الخارج إلى الداخل، هذا الذي يضفي على وجهه مظهرًا بأن أفكاره في مكان آخر، وأنه ليس لديه أدنى اهتمام بما يحدث من حوله.

كما توقعت، قدموا لنا معلومات أساسية، ونصائح وإرشادات، وحددوا وقت مغادرتنا، وأرسلونا في طريقنا.

عندما صعدت إلى السفينة كنت قد رأيت أنطونيو مرة واحدة، ويمكن أن يقال إنني لم أكن أعرفه، ولكن في الوقت الذي وصلنا فيه إلى وجهتنا وألقينا المرساة في المكان الذي ألقى فيه بحارو الأرجو[3] مرساتهم، وفقا لآبولونيوس الرودسي[4] وغيره من الكتاب القدماء، كنا بالفعل صديقين مقربين.

خضنا رحلة هادئة. صحيح أن الإبحار في البحر الأسود كان خطرًا جدًا في هذا الوقت، ولهذا السبب كنا جميعًا مسلحين ومستعدين للدفاع عن أنفسنا، ولكن بفضل الله لم نقابل خطرًا من أي نوع.

كان أنطونيو منعزلاً في السفينة. بدا كشخص صعب ولا يسهل التقرب منه. تصورت أولاً أنه رجل مغرور، بدا لي أنه يعرف شيئًا لا يعرفه بقيتنا، وبسبب ذلك كان ينظر إلينا جميعًا من عَلٍ، ولا يعتبرنا مساوين له. لم أره يبتسم، وكان قليل الكلام جدًا، بدا معظم الوقت يفكر بعمق وغير مهتم كثيرًا بنا وبالمسافرين الآخرين على السفينة.

أثناء الرحلة كنا نجتمع نحن الثمانية عشر من آن لآخر. كانت هذه ضرورة ومتعة. متعة لأننا كنا نتحدث، ونضحك، ونسلي أنفسنا في صراع ناجح مع ملل الرحلة، وإلى جانب ذلك كنا نواجه بشكل أسهل الأفكار الحزينة التي يوقظها تلقائيًا الانفصال عن العائلة والأصدقاء المقربين (وكان هذا يقلق بشكل خاص هؤلاء الذين تعتبر هذه رحلتهم المطولة الأولى). وكان هذا أيضًا ضرورة حتى نستطيع أن نعرف بعضنا جيدًا، ونقيم الروابط مع بعضنا، ونتفاهم ونتعرف وننتزع سوء الفهم الذي يمكن أن نتوقعه كنتيجة لطبائعنا وشخصياتنا المختلفة على السفينة، طالما أنه، بينما نمضي في أرض أجنبية ستعتمد الأمور على تماسكنا ودعمنا وثقتنا المشتركة، وعلى وقوفنا بجانب بعضنا. من الطبيعي أن أنطونيو أيضًا حضر هذا النوع من الاجتماعات، ولكنه اعتاد الجلوس بهدوء مع نفسه، ولا يشترك في الحوار. في بعض الأحيان كان يطلب مني المسافرون أن أحكي لهم قصة، باعتباري واحدًا له خبرة في الارتحال إلى العديد من الأراضي، فأحكي لهم وأنا مستمتع حدثًا مثيرًا جرى معي في أحد الأماكن. في تلك الأوقات، لاحظت كثيرًا تحديقة أنطونيو، هو الذي دومًا ينظر للداخل تجاه أفكاره، تتغير تحديقته، ويضيء فضوله في الفتحات الرمادية لعينيه نصف المغلقتين. في مثل تلك الحالات كنت أشعر غالبًا بمسحة من الفخر، أشعر بأنني هزمت منافسًا صعبًا، وأحاول بلا وعي أن أجعل من قصتي أكثر إثارة للإعجاب، وأكثر حيوية وأكثر دلالة. كان هذا سخيفًا كما هو واضح، لأنني لاحظت بنفسي كيف أن هذه الرغبة المحمومة تجعلني أفقد تلقائية حكيي للقصة، وتجعل أحداثًا زائفة تتسلل إلى قصصي.

قائد بعثتنا، الذي كان يُنَظِّم هذه الاجتماعات (ومن الممكن أنه تم تكليفه بذلك)، كان يعرف أنطونيو من قبل. أما بقيتنا فكانوا مثلي يعرفونه على السفينة لأول مرة. في كل الأحوال، فقائد البعثة، الوحيد الذي يعرفه، لم يكن يجد أنطونيو محبوبًا. لا أستطيع القول إنه كان عدوانيًا تجاهه، ولكن كان من الواضح أنه لا يُكِنّ له إعجابًا عميقًا. كان يتحول فجأة في تعاملاته مع أنطونيو، وهو الودود والمهتم، إلى بارد ولا مبالٍ ويحافظ بصرامة على صوت ومسافة القائد.

بفضل شخصيتي الداخلية والخبرة التي تحصلت عليها في أسفاري، كنت دومًا أجد بسهولة لغة مشتركة مع الناس، وسريعًا أستطيع أن أصير مقربًا من أي شخص. رفاق السفر كانوا أناسًا طيبين ومرحين ذوي قيم أخلاقية عالية، وكانوا يعرفون واجبهم جيدًا، سواء تجاه البلد الذي يسافرون منه أو البلد الذي يتوجهون إليه. الضمير والواجب وحب الأقرباء كانوا الناصحين والمرشدين الأساسيين في شئونهم. صِرْت مُقَرَّبا منهم جميعًا عدا أنطونيو. وكنت مهتما بشكل أكبر بأنطونيو. وددت كثيرًا أن أنظر إلى قلب هذا الرجل المنعزل وأن أرى ما هو مختبئ فيه والذي

يجعله يتجنبنا ويتهرب منا، حتى وهو في الطريق إلى بلد أجنبي، حيث يمكن للخطر أن يصيب أي شخص يبقى وحيدًا بلا أصدقاء. مرة واحدة اخترت الوقت وغيّرت حوار قائد البعثة نحو أنطونيو، ولكنه غَيَّر سريعًا الموضوع نحو شيء آخر. هذا لم يكن غير متوقع بالنسبة لي. فطالما لا يُكنان أي مشاعر عميقة تجاه بعضهما، كان من الطبيعي تمامًا ألا يرغب القائد في الحديث عن أنطونيو وأن يُغَيِّر الموضوع. ولكني أثرت الحوار فقط لأنني أملت أن تكشف هذه الوقفة القصيرة، قبل أن يستمر في الحديث في موضوع آخر، شيئًا من نبرة صوته أو إيماءاته أو أن يُصدِر أي تعبير يمكن أن يزودني ببديل جزئي فحسب عن الإجابة. ولكن بدا أن قائدنا بارع جدًا في التعامل مع العلاقات وأخفى بسهولة ما يرغب في إخفائه. حدث الأمر بسرعة، ولكن الحذق والتدريج في تغيير الموضوع تركني من دون أن أصل إلى شيء أو أن أسير في الطريق الصحيح. مرة أو مرتين عزمت على أن أقترب من أنطونيو مباشرة وأتحدث إليه، ولكني كنت أخشى أن يصدني، ودائمًا أتراجع في اللحظة الأخيرة. كنت مقتنعًا بأن هذا الرجل الذي لا يسهل التقرب منه، فهذا المغرور – كما بدا لي في هذا الوقت – يمكن أن يعطي ظهره لي من دون ندم وأن يرفضني بقسوة.

ولكن في أحد الأيام، تحدث أنطونيو بنفسه إليَّ.

كانت أمسية هادئة. انتهيت مما كنت أفعله وصعدت إلى سطح السفينة. كان البحر ساكنًا لا يتحرك، صافيًا ولامعًا كمرآة؛ وكانت السماء عميقة وخالية من الغيم. كانت الشمس تقف على الأفق، كانت تلامس المياه بالفعل، وتبدأ في النزول إلى أسفل تدريجيًا. كان أنطونيو يقف على حافة سطح السفينة، ظهره إليَّ، وذراعاه مضمومتان على صدره، يُحَدِّق في الصورة الآسرة لغروب الشمس. كنت قد لاحظته على سطح السفينة في أوقات أخرى من الأمسيات. أحيانًا يقف هكذا لساعات متأملاً الامتداد اللانهائي للبحر. خفْت أن يعتقد أنني أريد أن أبدًا معه حوارًا، لذلك قررت أن أتوجه إلى الجانب الآخر من السطح. ناداني في هذه اللحظة. من دون أن يُحَرِّك رأسه، ولا يُغَيِّر من وقفته، ومن دون أن يتحرك، ناداني فحسب بصوت منخفض، ولكنه مميز:

"عزيزي بارتولوميو!".

اقتربت منه طالما ناداني.

"مساء الخير".

أجاب: "مساء الخير". وعندما اقتربت جدًا منه ووقفت إلى جانبه، أضاف: "ألا تحب رؤية غروب الشمس؟".

"بالفعل أحب رؤية غروب الشمس. ولكنني لا أحب ذلك عندما يتم تكدير صفو شخص ما بظهوري في المشهد".

في هذه اللحظة فحسب أدار أنطونيو وجهه. نظر إلى وجهي وابتسم لأول مرة منذ تعارفنا. كانت لديه أسنان كبيرة، غير منتظمة قليلاً وليست بيضاء تمامًا، ولكن الابتسامة كانت مناسبة. استدعت هذه الابتسامة الدفء للعينين نصف المغمضتين، واختفى التعبير الكئيب من على وجهه. ثم أدار وجهه مجددًا نحو الشمس الغاربة. ثلث القرص كان في الماء فعليًا، وخيوط رفيعة من الغيم

الأبيض كانت تمضي أمام ما ظَل مرئيًا فوق الماء، مُقسِّما إياها إلى اثنين. هبطت الشمس تدريجيًا، وسريعًا عبرت خط الغيوم وفي النهاية غرقت تمامًا في البحر. لعبت أشعة الشمس لبعض الوقت في قبة السماء. ثم انطفأت أيضًا وبدأ الغسق في الحلول. كان أنطونيو ينظر الآن نحو البحر المظلم. أنا، أيضًا، كانت أنظر إلى أسفل، إلى البحر، وأنتظره ليتحدث طالما أنه هو من بدأ الحوار. بعد صمت قصير تحدث في النهاية إليَّ:

"هل يمكنك تخيل أنه في عمري هذا تعتبر هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها على متن سفينة". بتلك الكلمات نظر إليَّ مجددا وهو مبتسم. "لقد سافرت كثيرًا، ومن المحتمل أن هذا ممل بالنسبة لك".

"لا، أنا أحب السفر حبًا جمًا، الأغلب أنني لا أصاب بالضجر أبدًا".

قال أنطونيو متأملاً: "هذا غريب".

"غريب؟ لمَ؟".

"غريب أن يقول الإنسان بثقة ما يحبه وما لا يحبه".

"هل هذا صعب جدًا حقًا؟".

"لا أعرف.. أنا على سبيل المثال قبل أن أقول بثقة ما أنا مقتنع به، أكون مقتنعًا بالفعل أنني مخطئ".

ضحكت.

"من وقت قصير أنت لم تلتفت، ولكنك ناديتني بثقة تامة حتى إنني لا أعتقد أنك شككت في أن الموجود هو أنا".

ضحك على هذا.

"هذا توقع معتاد، في اللحظة التي سمعت فيها وقع الأقدام، حضرت إلى ذهني على الفور".

"أليس هذا شيئًا أغرب؟".

"لا. التوقع مهارة سهلة، إن كنت شخصًا تلاحظ الأشياء بعض الشيء. لقد لاحظت أنك تحب أن تصعد إلى سطح السفينة في الأمسيات مثلما أفعل. هذا كل ما في الأمر".

"إنه أمر سهل حقًا!".

"كل شيء سهل عندما تشرحه".

كان حوارنا طبيعيًا وتلقائيًا من البداية. بدأنا سريعًا الحديث عن رحلتنا، وبدا أن أنطونيو ليس فقط مُلِّمًا بكل شيء يمكن أن يُعرَف عن "كولخيس" أو إيبريا عند الكتاب القدماء والمحدثين، ولكنه كان يفكر بعمق في المعلومات، ويتأكد منها ويصل إلى عدد من النتائج المثيرة. عندما عرف

أنني أستطيع التحدث قليلاً باللغة الجورجية، اندهش، ثم صار سعيدًا، وطلب مني أن أَعَلِّمه. وافقت مبتهجًا، وكلفته بواجبات من آنٍ لآخر. كرر أنطونيو ببطء وتأنٍ الكلمات الأجنبية، موجهًا عناية خاصة لأصواتها. وسريعًا لم يعد هناك أثر للتحفظ والغرور وثقل الظل. بالنسبة إليَّ كان شخصًا بهيجًا وسريع البديهة يرد على الدفء بدفء، وعلى الطيبة بطيبة. بالتأكيد لم تكن هذه العزلة المتجهمة، التي اعتقدت خطأ أنها تكبر، نابعة من شخصيته، وإنما من شيء مجهول بالنسبة لي.

تقابلنا في اليوم التالي وكأننا صديقان قديمان، وفي المساء شاهدنا غروب الشمس مجددًا من على سطح السفينة.. عندما غرقت الشمس في البحر وحل الغسق، بدا وكأن الغروب جمعنا بشكل أقرب. حل الصمت لبعض الوقت. وقفنا جنبًا إلى جنب، وشعرت بأن الصمت هو استكمال لحوارنا. إنه هذا الصمت الذي لا يفصل الناس، ولكنه يربطهم ببعضهم. إنه يشجعك على أن تفتح قلبك، ويأخذك إلى طريق الصداقة الأكيد.

وأنا أشعر بدوار خفيف من هذا الصمت المُعَبِّر ومن الغروب الغامض والرائع، قلت بهدوء:

"في صباي، بعدما جعلوني أقرأ الإنجيل المقدس لأول مرة، كانت أمنيتي الوحيدة هي أن أعبر البحر على قدميَّ عندما أكبر".

"حسنًا؟ ألم تكن قادرًا على عبوره؟".

ضحكت.

"لا، لم أكن قادرًا على ذلك. بالتدريج اقتنعت بأن مثال يسوع المسيح لن يكون نافعًا لي كثيرًا طالما أن المسيح يملك طبيعة إلهية، وأنا لا أملكها".

عندما استمع أنطونيو إلى ذلك، سألني فجأة وباهتمام حقيقي:

"وما هي الطبيعة الإلهية يا بارتولوميو؟".

ارتبكت للحظة، ثم اخترت أن أجيب عن السؤال بسؤال:

"هل تشك في أن المسيح يملك طبيعة إلهية؟".

قال أنطونيو، وفي صوته نبرة كئيبة وساخرة غير متوقعة: "أنا لا أعرف ما هي الطبيعة الإلهية، طالما أعرف أن الله لا يملك طبيعة". ثم ضحك من قلبه وأضاف: "وأنا أعرف أيضًا أنهم بالتأكيد سيحذرونك قريبًا من الحديث معي عن مثل هذه الأشياء، إن لم يكونوا قد قاموا بذلك بالفعل".

نظرت إليه وأنا أشعر بالمفاجأة. كان ينظر إلى البحر، وشكله من الجانب – بجبينه العريض والطويل ولحيته الحمراء التي بدت الآن قاتمة في الغسق – بدا غريبًا وغير طبيعي لي في مواجهة الخلفية السوداء للبحر، وكأنني لا أرى بالفعل شكله من الجانب، وإنما الظل العملاق له.

في هذه الليلة وأنا وحدي في حجرتي، فكرت لوقت طويل في كلمات أنطونيو، ومن آنٍ لآخر

يتبدى لي شكله الجانبي أمامي: ظِلّ عملاق غير طبيعي أمام بحر مظلم – غريب وغامض وخَطِر.

تحققت نبوءته سريعًا جدًا. وفي أحد الأيام استدعاني قائد البعثة إلى حجرته. رسميًا كان القساوسة فقط هم التابعين للقائد، والرجل الذي أرسله نَقَل لي الرسالة مع كامل الاحترام: "الأب سباستيان يرغب في رؤيتك، وربما يكون بإمكانك – لو كان لديك الوقت – أن تزوره لوقت قصير بعد الغداء". في الحقيقة كان طلب القائد أمر، طالما أن البلاط الملكي قد منحه سلطات خاصة قبل مغادرتنا يستطيع أن يستخدمها في أي وقت وفقًا لرغبته، وبسبب هذا كانت لديه سلطة ضمنية. كنا جميعًا نعرف هذا. ولذلك حضرت إليه في الموعد المحدد. حيَّاني القائد بأدب ودفء كما كانت عادته. كانت حجرته نموذجًا للبساطة. كانت لديه أريكة عثمانية من الخشب الصلب، ومائدة وكرسيان بسيطان. الشيئان القَيِّمان الوحيدان في الغرفة كانا عبارة عن شمعدان على المائدة وصورة لنزول المُخَلِّص من على الصليب معلقة على الحائط أعلى المائدة. كان يمكنك أن تتصور المكان كصومعة ناسك أكثر منه حجرة بسفينة. بدا القائد نفسه كناسك. كان رجلاً طويلاً جدًا، محنيًا قليلاً من عند الأكتاف ونحيفًا جدًا حتى إنه لا يوجد أثر للحم فيه. كان مِحجرًا عينيه ووجنتاه غائرتين، جبينه ويداه مجعدين، وعيناه كانتا منتفختين. ومع ذلك، كنت تشعر بأنك عارٍ تمامًا عندما يتفحصك بهاتين العينين المنتفختين. رَسَم القائد علامة الصليب عليَّ، وأجلسني على الكرسي الأفضل نسبيًا، وجلس هو على الآخر، وبدأ حوارًا مخلصًا ومتباطئًا. تحدث إليَّ أولاً عن الموضوعات العامة التي لم تكن مضجرة ولا تتطلب أي اهتمام أو تركيز خاص. ثم تحدث عن نَسَبي. استدعى أسلافي، وظل لوقت طويل يتحدث عن أبي، الذي ظهر أنه كان يعرفه شخصيًا. كنت بالفعل أفكر في نبوءة أنطونيو، وكنت منتبهًا. تحدث مجددًا عن أبي، وكان سخيًا في مدحه، قال: "كان أشجع الرجال، حصل على العديد من الانتصارات الشهيرة، شجاعته وقوته ودهاؤه ومعرفته الواسعة في الشئون العسكرية مصدر مسرة حتى لأعدائه. وَهَب كل حياته للخدمة الوفية للعرش". ثم انتقل إليَّ:

"بارتولوميو يا بُنيَّ، لقد أصبحت الوريث الكريم لأبيك، وعلى الرغم من شبابك، قمت بالفعل بالعديد من المهام العظيمة للدولة وللكنيسة. أنا مفتون برحلاتك الشجاعة التي واجهت فيها العديد من المخاطر. أنا ممتن بشكل خاص لكونك تركت اسمًا طيبًا في كل مكان ذهبت إليه. تلك الرحلات أقامت العديد من الصداقات الجديدة للدولة ومَدَّت بشكل ملحوظ قنواتها التجارية، وعدد كبير من المبشرين مضوا لاحقًا في الطريق الذي مَهَّدته، للتبشير بالعبادة المسيحية في الأراضي الأجنبية وهَدي الناس إلى الإيمان الصحيح. كان لديَّ الشرف أن يستقبلني عظمته قبل مغادرتنا، ويمكنني أن أؤكد لك يا بُنيَّ، أن عظمته ذكر إنجازاتك ومدحها".

"شكرًا لك أيها الأب سباستيان. إنجازاتي القليلة لا تستحق اهتمام عظمته".

"عظمته يتوقع خدمة وفية منك في المستقبل".

"أنا أُقَدِّر كثيرًا ثقة عظمته فيَّ، وسوف أبذل أقصى جهدي لتنفيذها".

بدا أن القائد سَعَد بردي طالما أن جبينه المُغَضَّن استرخى قليلاً. صَمَت لبرهة، ونظر إلى مكان ما خلفي. ثم حَدَّق بعمق بعينيه الغائرتين فيَّ مجددًا وانحنى للأمام حتى إنني ظننت أنه يُحَدَّق في

الدم الذي يجري في عروقي. نظر طويلاً ثم قال في النهاية وهو راضٍ:

"تجنب أنطونيو هذا يا بنيَّ، لا تصير صديقًا مقربًا منه".

"لِمَ أيها الأب سباستيان؟".

"لأنه ينكر الله، وهو شخص دَنِس. ممسوس من الشيطان، فليحفظنا الله!". مع تلك الكلمات رسم علامة الصليب على نفسه ثم عليَّ. "هو ملعون بالحرق في الجحيم، وهو يحاول تضليل الآخرين".

أعتقد أنني فغرت فاي أمامه مندهشًا. بعد نبوءة أنطونيو توقعت نصيحة أبوية وتحذيرًا من القائد، ولكن كيف كان بإمكاني تخيل هذا؟ أنطونيو ممسوس من الشيطان! لقد كنت بالفعل مفتونًا بأنطونيو، وأن أصدق ما قاله عنه القائد يعني الاعتراف بحمقي وسذاجتي العمياء. فالقائد يعرف قَدْره ولا يتحدث بكلام فارغ.

"أيها الأب سباستيان، بالتأكيد مثل هذا الشخص الذكي والمتعلم..".

قاطعني القائد، وأثر خفيف من السلطة وربما أيضًا من نفاد الصبر يتسلل الآن إلى نبرة صوته: "التعليم يا بُنَيَّ لا يدعم الإيمان، وبالإضافة إلى ذلك، إن لم يتأسس الإيمان على أرضية صلبة، يمكن للتعليم أن يُضِل المرء بسهولة. كان أنطونيو قسيسًا في زمنه ومسئولاً عن إبراشية. ولكنه هجر الكنيسة سريعًا وعاش في الصحراء كناسك لعدة سنوات. لم يعرف أحد ما الذي كان يفعله في هذا الوقت. يبدو أنه باع وقتها روحه للشيطان. من الممكن أن يكون هذا في مقابل العِلْم. عندما عاد من الصحراء بدأ في إنكار الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. وأَضلَّ العديد من الناس السذج. طالبوا بإنكار العقائد، وسبوا القساوسة، ونظموا العديد من الأشياء الخبيثة، وبسبب هذا تم القبض عليهم وقُدِّموا للمحاكمة أمام محاكم التفتيش المقدسة. وفي المحكمة، ندم العديد من العميان الذين ضلوا بإخلاص على خطاياهم وغفرت لهم المحكمة برحابة صدر. أما هو وثلاثة خطاة آخرين ممسوسين من الشيطان فقد أصروا على رأيهم، وجادلوا بأن الكنيسة الكاثوليكية حَرَّفت عقيدة ربنا ومخلصنا. قررت محكمة التفتيش المقدسة أن يُعدم أربعتهم حرقًا. نُفِّذ الحكم في حالة ثلاثة من الخطاة، أما هو فهرب من الحكم بفضل اسم عائلته النبيل وأصدقائه الوجهاء".

كانت لديَّ معرفة عابرة بتلك المحاكمة. كنت مسافرًا في هذا الوقت، وكانت الأخبار تتلاشى عندما عدت. لم أولِ انتباهًا كبيرًا ساعتها. نختبر دومًا أن هذه الأشياء لا تحدث أمام أعيننا. ما قاله القائد الآن آثارني كثيرًا، كما يبدو فهذا هو سبب تحفظ وتعالي أنطونيو.

كل منا صَمَت لبعض الوقت. ثم سألته:

"لِم إذن أرسلتموه معنا؟ ما الفارق بين أن يكون الشخص ممسوسًا من الشيطان في أرض مسيحية أو أخرى؟".

"البلد الذي نذهب إليه يحاصره المسلمون. وطالما أن كل شيء هناك فوضوي، فأنطونيو واحد لن يؤدي لاختلاف كبير. وإلى جانب ذلك..". صَمَت قائد البعثة ونظر إليَّ نظرة سريعة متفحصة،

وكأنه غير قادر على تقرير إن كان يمكنه الحديث أم لا. ثم أضاف: "فهناك لن يكون هناك أحد ليحميه".

استنتجت ثلاثة أشياء مما قاله للتو. الأول، هو أن الكنيسة تعتبر أنطونيو بالفعل مصدر مخاوف كبيرة، طالما أنها أخرجته من البلد مع أول فرصة. الثاني هو أن أصدقاء أنطونيو هم بالفعل أناس مؤثرون طالما أن الكنيسة تتحسب منهم حتى عند التعامل مع شخص خطير. والثالث هو أن أنطونيو مهدد بالخطر مجددًا. ومن يدري، ربما يكون هذا الخطر قد خُطِّط وأُعِدَّ له بالفعل.

كان بإمكاني ساعتها الاستماع إلى صوت القائد: "وهكذا يا بُنيَّ سيكون من الأفضل أن تأخذ مسافة كبيرة من هذا الرجل".

كنت أعرف أنني لن أستطيع ترك أنطونيو بهذه السهولة. من دون قصد آثار قائد البعثة بكلماته ونصيحته اهتمامي أكثر. ولا كان بإمكاني قبول ختم الحظر الذي وُضِع على أنطونيو وعلاقتي به التي ستصير بهذه الطريقة سرية. لهذه الأسباب نظرت إلى عيني القائد وقلت له:

"أيها الأب سباستيان، إن إيماني قوي. الشخص الذي يختبئ من الخطيئة ضعيف؛ أما الشخص الذي يهزم الخطيئة قوي. أنا لست خائفًا".

بدا أن القائد لم يعجب ببديهيتي طالما أن جبهته تغضنت أكثر على الرغم من أنه ظل هادئًا، فالبرودة ذات المسافة لا تزال مميزة في صوته:

"بالطبع يا ولدي، أنت حر تمامًا في التصرف بالشكل الأفضل بالنسبة لك. ولكني حذرتك لأن هذا واجبي".

فشل حواري مع قائد البعثة على التأثير فيَّ. صحيح أنني كنت حذرًا في البداية من دون أن أقصد، وعندما كنت أتحدث إلى أنطونيو كنت أزن كلماتي بحرص شديد أكثر من عادتي، ولكن هذا مر سريعًا. الآن كان الأثر الوحيد المتبقي من نصيحة القائد هو أنني تجنبت الحديث عن الدين والكنيسة. وكما بدا فأنطونيو بنفسه ساعدني في هذا. كان يتجنب الحديث عن هذه الموضوعات بجهد أعظم من استطاعتي. من جهة أخرى، اعتدت على أن أُعَلِّمه اللغة الجورجية بحماس شديد واعتاد أن يدرس بالحماس نفسه. في أي مكان يذهب إليه، كان يكرر باستمرار الكلمات الأجنبية، وتقدم في ذلك تقدمًا ملحوظًا. بالإضافة إلى ذلك، وجدنا العديد من الأشياء التي نستطيع التحدث أو نتبادل الآراء عنها والتي لا تضجرنا أبدًا. حتى ذلك الوقت، كنت أعتبر نفسي شخصًا واسع المعرفة، ولكن كلما اقتربت من أنطونيو وكلما تحادثنا، صرت مقتنعًا بأنني كنت مخطئًا؛ صحيح أنني لما أكن أقل منه في سعة الاطلاع، وفي الحقيقة كنت قد رأيت أكثر منه بسبب تجوالي، ولكن عِلمي كان عبارة عن جمع للمعرفة، بينما كان علمه عبارة عن امتصاص للمعرفة. كانت معرفتي شيئًا، كنزًا مُخَزَّنًا في صندوق عقلي ليُعرَض عندما أرغب في ذلك، بينما كان هو يستخدم المعرفة لينمو، إنه غذاء يمتصه وجوده ويتحول إلى سمة لحياته.

صرنا صديقين مقربين سريعًا، هذا الذي جعل حوار القائد الأخير يُشعِرني بتأنيب الضمير. حتى ذلك الوقت لم يطلب مني القائد أن نُبقي حوارنا سريًا، ولكن في رأيي كان هذا ضروريًا من دون

التصريح به. ظللت مخلصًا لوعدي غير المُصَرَّح به حتى هذا اليوم. ولكن الأمانة طالبتني الآن بأن أخرق هذا الوعد الخاص، طالما أنني وأنطونيو صرنا صديقين، وأنا أملك معلومات سرية عنه. شعرت بأن هذا سيقودنا في النهاية إلى الدين والكنيسة الكاثوليكية، ولكن حتى الآن كان بإمكاني البقاء صامتًا، حتى قلت له في إحدى المناسبات:

"قائد البعثة لا ينظر إليك بعين الإعجاب".

أجابني أنطونيو ببساطة، وتقريبًا بعدم اهتمام: "أعرف ذلك".

"هل تذكر عندما أخبرتني مؤخرًا أنهم سيحذرونني؟".

"أذكر ذلك. هل حذروك؟".

"لقد فعلوا. طلب القائد أن يقابلني ونصحني بأن أتخذ مسافة منك".

"نصيحة القائد مساوية للأمر يا بارتولوميو".

"أعرف ذلك".

"حسنًا؟".

"يقول الأب سباستيان إنك مُهَرطِق. هل أنت كذلك فعلاً؟".

نظر لي أنطونيو نظرة متفحصة.

"تعتبرني الكنيسة مهرطقًا، بينما أعتبر أنا الكنيسة مهرطقة. من الصعب تقرير كون الحقيقة في أي جانب، طالما أن السلطة في جانب الكنيسة". صَمَت لفترة قصيرة قبل الاستمرار: "من الطيب أن قائد البعثة حذرك. كان يعرف أنك لن تهتم، ولكن كان يعرف أيضًا أن نصيحته ستترك أثرها. لا تأخذ أي شيء مني بثقة بعد تحذيره، وتَصَرَّف بصواب". صَمَت مجددًا وظل هكذا لوقت طويل، وفي النهاية أكمل قائلاً: "هذا تعذيب يا بارتولوميو، أن تعيش في بلد غير مسموح لك بأن تتحدث فيه عما يدور في ذهنك بحرية. إنهم سيحرمون التفكير الحر لو كان بإمكانهم ذلك. البابا إنسان مثلنا، وبإمكانه ارتكاب الأخطاء مثلنا. هو يظن أنه معصوم، وبالتالي يسوقنا كالعميان إلى أي مكان يرغب فيه. لقد أعطانا الله أعينًا يا بارتولوميو، وأعطانا إياها لكي نرى، ولكنهم يرون بدلاً منا، ويجبروننا على أن نقول على الشيء إنه أبيض في الوقت الذي نراه فيه أسود. لقد أعطانا الله عقلاً، وأعطانا إياه لنتعقل، وهم يجبروننا على خنق عقلنا، وأن نتعقل بما يوافق عقلهم. لقد قاوم يسوع المسيح العقيدة الجامدة. كيف كان سيعرف أن أتباعه سيؤسسون عقائد جامدة جديدة لتحل محل القديمة، وأنهم سيحلون فريسيين[(5)] جددًا محل القدامى!".

"كيف كان سيعرف؟ إذن هل تعتقد حقًا أن سيدنا ومخلصنا لم يكن سوى إنسان؟".

"لا يا بارتولوميو. أنا أفكر في شيء مختلف كلية. أنا أؤمن بأن قوانين الطبيعة هي كُلّ لا ينقسم وكل المخلوقات الحية تطيعها".

"ولكن سيدنا..".

"أنا لا أعتقد أن الله يدير مسرحًا يا بارتولوميو. كل شيء سيكون بسيطًا وواضحًا إن كان تَجَسُّد الله يملك ما أطلقت عليه سابقًا (طبيعة إلهية). يمكن لله أن يَعبُر من طبيعة إلى أخرى، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ قوانين طبيعة إلى أخرى، لأن هذا سيخرق تمامًا ما خلقه بقدرته الكلية على أنه مطلق وغير قابل للخرق. لا يا بارتولوميو، تَجَسُّد الله يجب أن يكون إنسانًا، الإنسان الأفضل بين الناس، ولكنه يظل إنسانًا. وعليه أن يطيع القوانين نفسها التي نطيعها أنا وأنت".

صَمَت أنطونيو مجددًا، وأنزل يديه اللتين كانتا مضمومتين على صدره حتى الآن، ثم أكمل بنبرة مسترضية: "هذا هو رأيي الشخصي يا بارتولوميو، وربما يكون خاطئًا كرأي البابا أو رأي واحد من الكاردينالات. ولكني لا أطلب أنه يتخذوا كلماتي على أنها الحقيقة. دعهم يثبتوا أنني على خطأ، وسوف أتراجع على الفور".

"ولكن تلك الآذان الألف والقلوب الألف التي ستستمع الآن إلى كلماتك وتتلقاها لا يمكنها أن تنفضها على الفور في اللحظة التي تتسلل فيها إلى أذهانهم. هذا ما تخشاه الكنيسة".

"هذا صحيح، وتلك الآذان الألف والقلوب الألف التي تضلها تعاليم الكنيسة بسهولة، تنقل حقيقة لا أساس لها. بالنسبة لي، العقيدة هي ما صدر من شفاه الرب وما أخبرنا به كاتبو الأناجيل المقدسة؛ ما جَمَعته الكنيسة وأضافته لاحقًا هو محل جدل ويحتاج للفحص".

"قلوب وأذهان الناس مخلوقة بطريقة أن كل إنسان لديه رأي ووجهة نظر مختلفة. في مثل تلك الظروف يمكن للنزاعات أن تكون بلا نهاية وبلا معنى، ومن يعلم؛ بالمضيِّ في هذا الطريق الذي لا ينتهي ربما نفقد إيماننا كليًا، الشيء الأساسي الذي نتناقش حوله. سقراط العظيم لم يعترف بالقوانين الأثينية، ولكن كان مستعدًا لإطاعتها".

"القوانين المدنية يصنعها الناس، ويمكن للناس أن يستبدولها بقوانين جديدة لو كانت هناك حاجة لذلك. الأقلية مجبرة على إطاعة الأغلبية في المسائل العابرة والزائلة، وأن يذعنوا لما لا يرونه صحيحًا. الدين شيء آخر. هناك حقيقة خالدة واحدة. الإيمان هو طريق الله. الإنسان لا يمكنه تصحيح ذلك أو تغييره، حتى لو كان بابا لألف مرة. أنت لا يمكنك الإذعان لإيمان الآخر ولا يمكنك أن تطيعه لو لم يكن إيمانك. إيماني وطريقي يمثلان شيئًا، وإيمان البابا وقائدنا وطريقهما يمثلان شيئًا آخر".

صَمَت أنطونيو، واستغللت ذلك وحاولت بقدر إمكاني أن أُغَيِّر دفة الحوار نحو اتجاه آخر لأن الحوار الجاري بدا خطرًا لي.

"أفهم أنك تعرف قائدنا من قبل".

"عرفته في المحاكمة". **نظر إليَّ أنطونيو متفحصًا مجددًا قبل أن يضيف: "كان واحدًا من القضاة. ألم يقل ذلك؟"**.

عندما سألني عن ذلك نظر لي بانتباه في ترقب غريب. في الوقت نفسه بدا قلقًا لسبب غير

معروف.

"لا. هو حدثني عن المحاكمة، ولكنه لم يذكر أنه شارك فيها بنفسه".

فجأة حلَّ صمت ثقيل. تغير وجه أنطونيو، وتحول إلى الشحوب الشديد، وصار تعبير وجهه قاتمًا مجددًا. جلس صامتًا لفترة، ثم تحول وبدأ في التحديق في الفراغ. شعرت بأنني لمست شيئًا غريبًا ومؤلمًا من دون قصد. ولكني لا أستطيع التفكير في شيء يمكنه أن يَخرِق هذا الصمت الخَطِر ويُغَيِّر اتجاه المحادثة مجددًا. كنت صامتًا لفترة طويلة. في النهاية، بدأ أنطونيو الحديث بصوت متغير ومختنق ومُجبَر قليلاً كما أعتقد:

"حَسَن أن القائد تحدث عن المحاكمة. على أي حال، كنت سأتحدث لك عنها اليوم أو غدًا. كدت أخبرك في العديد من المناسبات السابقة، ولكني وجدت من الصعب أن أفتح الموضوع. الآن، طالما أن النقاط الأساسية معروفة لك، سأخبرك عن بقية الأشياء بشكل أكثر هدوءًا. استمع إليَّ يا بارتولوميو، هذا اعترافي وأنت أول من تستمع إليه.. لقد كنت القائد المعروف لأخوية ما، كنت قائدهم، ولكني كنت القائد بسبب أنني أول من استمع الناس إلى صوتي، ولكن أخويتي الروحية – في ذهني الثلاثة الذين ظلوا على الإيمان حتى النهاية وليس الآخرين، سامحهم الله، الذين أنكروا الأخوية وتابوا عن كل شيء لإنقاذ أرواحهم – كانوا أفضل كثيرًا مني. كان إيمانهم أعمق مني، وعقلهم أصفى مني، ومعرفتهم أعظم مني. مثلي مثل إخوتي الثلاثة، لم يكن لديَّ شك من أن المحكمة ستقرر إعدامنا حرقًا، ولكن عندما تقرر الحكم، ارتعش جسدي فجأة، ومرت حرارة حارقة شديدة على جسدي كأنها مرور مكواة الوشم، وشعرت بشعر رأسي يقف إلى أطرافه. كل هذا حدث في لحظة، وخلال تلك اللحظة حاولت أن أسيطر على القوى الحية في روحي حتى لا يتغير لوني أو أن تظهر على وجهي تلك الحرارة المخيفة التي كانت تعبر عن الخوف على الأرجح. لا أعرف إن كنت نجحت في هدفي أم لا، ولكن تلك الهشاشة المؤقتة سيطرت بقوة على وعيي. تَمَزَّق شيء في قلبي، واحتقرت جسدي كأنه أكثر أعدائي شرًا. عندما قادونا إلى خارج المحكمة ودفعونا إلى الزنزانة مجددًا، اعتبرت أن واجبي الأول هو أن أكشف ضعفي لإخوتي وأعترف أن إيماني ليس كاملاً. كما ظهر، هم أيضًا اختبروا الشيء نفسه. على أي حال، هذا هو ما أخبروني به، ولم أشك في أنهم كانوا يقولون الحقيقة. قضينا تلك الليلة نصلي، صلينا لله من أجل أرواحنا، وعندما ظهرت أشعة الشمس الأولى من خلال النافذة الضيقة للزنزانة، كان أربعتنا مستعدين لاستقبال العقاب بهدوء وتحمل. تم ترتيب أن الحكم سيتم نفاذه في المساء، وفي العاشرة صباحًا أُخبِرت بتأجيلي. أشار إليَّ حارس السجن بإصبعه إلى الباب الحديدي للزنزانة وأخبرني بهدوء أنه تم إعفائي، مضيفًا أن هناك أمرًا بإطلاق سراحي سيُبَلَّغ إلى مدير السجن في خلال ساعات. لم يكتفِ أصدقائي وأقاربي بإعفائي، ولكنهم رشوا الحارس حتي يستطيع إبلاغي بأخبار إطلاق سراحي مع أبكر فرصة، وفي ظنهم أن هذا سيريحني عدة ساعات من العناء. هناك شيء مفاجئ حدث يا بارتولوميو: عندما ناداني الحارس وهمس بخبر أنني حر، مرت مكواة الوشم بقسوة على جسدي، ووقف شعر يدي وجسدي بالطريقة نفسها التي حدثت عندما نُطِق بالحكم. بعدما تركني الحارس، انتظرت قليلاً حتى تتوقف الرعشة قبل أن أعود، ثم أخبرت إخوتي بما قاله الحارس، وفي الوقت نفسه أضفت أنني سأرفض الحكم.. بارتولوميو! عندما قلت ذلك شعرت بازدراء غامض لذاتي

وحاولت بشدة أن أخفي هذا الازدراء عن نفسي. لأنني فعلت ذلك بقصد. صحيح أنني لم أفكر في تصرفي مليًا في ذلك الوقت، ولكن ما الذي يعنيه هذا! الشيء الأساسي هو أنني كشفت بنفسي أخبار الحارس لرفاقي عن قصد، طالما عرفت أنهم لن يتركونني أرفض العفو. لم يكن إيماني إيمانًا حقيقيًا يا بارتولوميو، لا قبل ذلك، ولا ساعتها، ولا بعدها. إن كان لديَّ إيمان صحيح، لم أكن لأتحدث ساعتها، وعندما أخذوني إلى رئيس السجن بعد ساعتين لأعرف عن إطلاق سراحي، كنت سأرفض العفو، وفي المساء كنت سأتلقى عقابي من دون أن يدرك إخوتي أي شيء. هذا هو الذي كان سيفعله إخوتي لو كانوا مكاني. ربما بسبب الخوف من الموت أو من حبي الجبان لجسدي الزائل، أخبرتهم بكل شيء على الفور. بارتولوميو! لقد تصرفت وكأني غاضب من تدخل أصدقائي وأقاربي وتطفلهم! بالطبع ثلاثتهم بدأوا في الوقت نفسه في الإصرار على أن رفض العفو ليس محل نقاش. الآن أستدعي تلك اللحظة التي ارتعش فيها جسدي من الخوف وكنت أتعرق. هل تعلم سبب هذا؟ أشك في أنهم خَمَّنوا قصدي! يا بارتولوميو! فقط شخص لم يختبر هذا يمكنه تصور أن الموت هو أبشع عقاب على الإطلاق. بدأ ثلاثتهم معًا في إقناعي أن أصدقائي وأقاربي كانوا مجرد أدوات يتم إدراك الله من خلالها. قالوا لي "إن تموت من أجل الله أسهل كثيرًا من أن تكافح من أجل الله. لم تعد أجسادنا تنتمي لأرواحنا، وما هو التمزق المؤقت بالنار لتلك الأجساد المنبوذة بالمقارنة بتلك النعمة التي تنتظرنا بعد هذا التمزق عندما ندخل إلى مملكة الله وننظر إلى الوجه الطاهر لمخلصنا؟، بينما أنت، من يدري، عليك أن تبقى لبعض الوقت في هذه الحياة الأرضية الزائلة والتافهة، وعليك أن تتحمل العديد من البلايا، ولكن ما الذي تستطيع فعله: كل شيء هو من إرادة الله، وطالما اختارك الله فهو وحده الذي أبقاك حيًا، فاشكره واحمل هذا العبء مذعنًا". بارتولوميو! كان بإمكاني أن أستدعي ألف حجة متماسكة ضد هذا الرأي، ولكني أخفيت عنهم تلك الحجج الألف في المخابئ المنيعة لعقلي، وبدلاً من ذلك ذكرت حججًا قليلة ضعيفة كان مصيرها الفشل من البداية، بالتالي استطعت أن أدَّعي محاولة تبرير قراري. لكن كما كان متوقعًا فقد رفضوا حججي بسهولة، وبعد ساعتين طلب مني مدير السجن أن يراني، ظهرت دموع الفرح على وجوههم، وعانقوني بشدة وأرسلوني في طريقي مع بركاتهم. فقط عندما غادرت السجن ووجدت نفسي وسط أصحابي أدركت كيف أعماني العطش للحياة، وكيف غَلَّف الضباب الكثيف عقلي. ولكن هذا كان متأخرًا جدًا! طالما أنني قبلت بجبن هبة الحرية ولم تكن لديَّ القوة الكافية لقول لا، فقد كان كل شيء متأخرًا جدًا. ما الذي فعلته بحق الله؟ إن عدت ساعتها وقلت إنني لا أريد هبة الحرية وطلبت أن أُعاقَب سيسخرون مني، وبالنسبة للعقاب فمن سيعاقبني؟ كان بإمكاني الحكم على نفسي بالموت، ولكن هذا لم يكن ليرضيني أو يستعيد اسمي الملطخ، كنت فقط أضع الخطيئة على الخطيئة. لم يكن هناك جدوى من الاستمرار في النضال. تعرضت للهزيمة والتدمير روحيًا. عندما يُهزَم عدو ويسقط على الأرض ويقوم من التراب ويبدأ في التلويح بقبضتيه بلا معنى، من سيعامله على أنه مساوٍ له؟ لم يكن هناك طريق آخر مفتوح أمامي سوى أن أعتاد على الحرية التي وُهِبت. بهذه الطريقة أقنعت نفسي يا بارتولوميو، أن هذا العفو هو أقسى عقاب على الإطلاق. من البداية قصدوا أن يحرموني من الكنيسة، ولكنهم تراجعوا عن تدميري تمامًا وتحويلي إلى غير موجود. كانوا يعرفون أن الشخص الذي يتلقى الحرية علي أيديهم لا يعود خطرًا".

صَمَت أنطونيو. ثم قلت له:

"استنتجت من حواري مع قائد البعثة أن الكنيسة تنظر لحالتك في ضوء مختلف تمامًا. إنها لا تدرك أي عقاب مَثَّله هذا التأجيل بالنسبة لك. الكنيسة مُجبَرة على أن تضع الناس المؤثرين في البلد في الاعتبار وتمضي ضد رغباتها. إنها منزعجة بهذا، وحتى الآن هي غير قادرة للتوافق مع هذا. يبدو لي يا أنطونيو أن إرسالك إلى كولخيس كان خطوة محسوبة بعناية".

"لا أحد أرسلني. أنا طلبت بنفسي أن آتي".

"لم؟".

"لا أحد يعرفني هناك. لا أحد لدرجة أنني سأصير غير موجود، وربما أحصل على موت شريف في بلد أجنبي".

"ما زلت أظن أنها خطوة محسوبة بعناية. أنت طلبت أن تصطحبنا، وهذا بالضبط ما زودهم بالفكرة. على أي حال، عليك أن تعرف الخطر الذي ينتظرك. الأب سباستيان يأمل أنه لو بدأت في التبشير هناك كقس، فلن يقيِّد البلاطَ شيءٌ طالما أن أصدقاءك ومعارفك سيكونون بعيدين وغير قادرين على مساعدتك بأي طريقة".

ضحك أنطونيو بمرارة.

"لا، يا بارتولوميو. من سيتنازل ليهبني جلسة بالمحكمة؟ وما هو الجدل التبشيري واللاهوتي الذي يمكن الحديث عنه في كولخيس؟ لعدة قرون كان هؤلاء الناس يعيشون محاطين بغير المؤمنين، وكانوا يدافعون عن أرضهم وعقيدتهم المسيحية بالسيف، طالما أن كل من الأرض والعقيدة المسيحية مهددون بالخطر نفسه. الكفاح والوجود المشترك مترادفان، وهم يعانون أكثر بسبب أعدائهم طوال وجودهم المشترك الممتد. لهذا السبب بدت العقيدة الحقيقية تنهار وتصير ملطخة. بالتالي فدورنا هناك لن يكون الجدل والتفسير اللاهوتي، ولكن بالأحرى تقوية تلك المؤسسات المشتركة التي هي صحيحة لدى كل المسيحيين".

استعدت حوار القائد وبدا للحظة أن هذين الرجلين المنافسين المتضادين الذي يقفون على ضفتين متواجهتين من النهر، كانا على حق. عندما يواجه اثنان بعضهما، يكون كل من الاثنين على خطأ، أو واحد منهما على الأقل. إنما بدا لي هنا أن الاثنين على حق. كان لديَّ وعي متماسك بالعقائد موجود فيَّ منذ الطفولة المبكرة، بالتالي لم أستطع أن أشارك بوضوح رؤية أنطونيو عن أن تجسد الله لديه فقط طبيعة إنسانية، ولكن هذا لم يُعِقْني عن رؤية حقيقة أنطونيو، طالما أن حقيقة أنطونيو كانت في أمانته التامة. لقد رأيت العديد من الناس في بلدنا وفي الخارج يؤمنون بكل وجودهم، ولكني رأيت أناسًا أكثر ليسوا مقتنعين بقلوبهم أنهم يؤمنون، والذين يُصَرِّحون بشيء؛ لأن هذا يبدو ضروريًا بالنسبة إليهم. يُصَرِّح أنطونيو فقط بما يؤمن به. كانت هذه هي طبيعته، وهو لم يستطع أن يتصرف بطريقة أخرى. في النهاية، هو أظهر عقيدته بانفتاح ومن دون خوف ولم يفرضه على أي شخص وعندما أصبحت عقيدته موضوعًا للنقاش، لم يحاول أن يستخدم كل الطرق ليدافع عنها كما تعتاد أغلبية الناس على أن تفعل، ولكنه يسعى لإثبات حقيقتها. من جهة أخرى، أنا لا أستطيع أن أشك في حقيقة الأب سباستيان. بنفس طريقة حقيقة أنطونيو،

فحقيقة الأب سباستيان نابعة من أمانته. بدأت أعرف هذا الرجل جيدًا خلال رحلتنا الطويلة، ورأيت أمانته، ونبله وطبيعته المتعاطفة. هو يعتني بنا بلا توقف كالدجاجة التي ترعى فراخها. خاطر بحياته من أجلنا في عدد من المناسبات، ولم يدعنا حتى نشكره على هذا. ولكن بالمقارنة بأنطونيو، لم يعتد الأب سباستيان أن يحكم على إيمانه ولا يدعه محل للنقاش. لأن الكنيسة والبابا بنفسهما كانا مدافعين عن إيمانه، كان لديه دعم من السلطة، والسلطة ترتبط بأهمية غير مُنكَرة وكلية للإيمان. من الصعب أن نُخالِف حقيقة تُعرَض باسم الكنيسة وليس باسمها الفردي. لو كان أنطونيو في مكانه، ربما سيتصرف بالطريقة نفسها، طالما كان رجلاً أمينًا، والأمانة – في تلك الحالة ليست أمانة شخصية ولا خاصة، ولكن أمانة تجاه الدولة – تتطلب هذا السلوك بالضبط.

من اليوم التالي لم يذكر أنطونيو مغامرته. من جهتي، وبعدما رأيت كيف عَذَّبه تذكره، حاولت أن لا أمهد للحديث عن ذلك. تجنبت الحديث عن الدين، فقط عندما اعتدت أن أحكي له عن رحلاته كان يولي اهتمامًا بالعقيدة التي كان الناس يتبعونها في كل بلد، وما هو جوهر دينهم، وأي طقوس أو عقائد كانوا يدافعون عنها.

وبينما كان قائد البعثة يرى أنني وأنطونيو معًا طوال الوقت، اعتبر أنه من الضروري أن يطلب رؤيتي مجددًا، ولكني أكدت له أن صداقتي بأنطونيو لا تمثل خطرًا على إيماني، فتركني في حالي.

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى الساحل، تَحَمَّل الرسل الكولخيون مسئولية استقبالنا. أَجَّروا أحصنة وثيرانًا وعربات لنا، واصطحبتنا فرقة عسكرية لأن الطريق كان خطرًا بسبب الكم الكبير من غارات المسلمين وقُطّاع الطرق، وسريعًا وصلنا إلى العاصمة من دون مشكلات. كانت مدينة صغيرة، رطبة وحارة. معظم المنازل كانت خشبية، ولكنها بدت جميلة جدًا لي، وهناك منازل أخرى كانت قبيحة وبائسة. قليل من الناس كانوا في الشوارع. ولكن ظهورنا استدعى حشود النساء والأطفال إلى شرفاتهم على الفور، وتبعونا بنظرات متسائلة.

في هذا اليوم استقبلنا كبير حاشية الأمير الحاكم. بدا شخصًا ذكيًا وخبيثًا وماكرًا. تحدث إلينا بأدب، ولم تترك الابتسامة شفتيه، ولكنه سألنا عدة أسئلة كانت تدل في رأيي على أنه يحاول معرفة إن كانت هناك مهام سرية يمكن أن تكون لكل واحد فينا.

في اليوم التالي رَتَّب الأمير الحاكم استقبالاً رسميًا لنا. حضره العديد من النبلاء، وكانوا صاخبين للغاية. كان الأمير الحاكم شابًا جدًا ووسيمًا، وجليلاً وأنيقًا، ملامحه كانت جميلة، وأخلاقه دمثة وابتسامته مرحبة. بدا أنه أكثر مرحًا وإثارة للثقة من خادمه.

كان الأمير الحاكم فقيرًا. لا يوجد شخص واحد من الموظفين الكبار عندنا سيبني بأي طريقة قصرًا كقصره. ناهيك عن ذكر الإمبراطور ووزرائه. النبلاء المعدمون عادة ما يشعرون بالخجل من فقرهم، ولإخفاء هذا العار إما أن يُظهِروا غرورًا كبيرًا أو يَطلون أبنيتهم الفقيرة بألوان قاتمة من البداية حتى تظن أن ما تراه لاحقًا يشبه الثراء. لا يتصرف هذا الأمير الحاكم بهذه الطريقة. هو متكيف ببساطة وتلقائية مع موقفه. الفقر بالنسبة له هو أمر متحقق، وبالتالي أمر عادي: أمر الله، المستحيل أن يُغَيِّره إنسان. وبهذا الطبع – مع النبل الطبيعي والبساطة الدافئة – تجاهَل الانطباع القوي للفقر.

بعد الاستقبال، عندما دُعينا جميعًا إلى مأدبة، أجلس الأمير قائد بعثتنا إلى جانبه. بدا هذا تكريمًا خاصًا وغير مفهوم بشكل ما، ولولا وجهه المرح والمخلص، وابتسامته الأقرب للطفولية، لكنت فكرت أن لديه غرضًا مختبئًا قليلاً. اندهشت في هذا الوقت، ولكن في النهاية عندما لاحظت أهل البلد عن قرب، فهمت غرض هذا السلوك غير المعتاد. هؤلاء الناس يُكِنّون احترامًا خاصًا للأجانب. يُقَدِّرون رأي الأجنبي أكثر من رأي مائة من أهلهم، حتى لو كان أهلهم على نفس القدر من الحكمة وسعة المعرفة. الأكثر إثارة للذهول هو أنهم يتصرفون بهذه الطريقة عندما يأتي الأمر لتلك المجالات الخاصة التي يعرفونها بشكل أفضل؟ على سبيل المثال، هم يغنون بشكل مدهش هنا وهم محترفون في الشعر، ولا أعتقد أن هوميرس نفسه سيحاول مجاراتهم، ولكن على الرغم من هذا، عندما يغني مغنو البلاط أغنية أو يلقي واحد من الشعراء قصيدة، يولون اهتمامهم على الفور نحونا ويبدأون في التحديق فينا كما لو كنا حُكَّامًا في الشعر والموسيقى. الأمير الحاكم ليس مختلفًا عن الآخرين من هذه الجهة.

قضينا الشتاء في العاصمة، وكان لدينا وقت كافٍ لحضور العديد من الشئون الأساسية. أسرع الأمير الحاكم ليقدم العمل لحرفيي الأسلحة، ونصبوا مدفعهم الأول مع نهاية الشتاء. تحت أوامر الأمير الحاكم، عمل العديد من النبلاء الشبان مع حرفيينا، ليساعدوا أهلنا وفي الوقت نفسه يحذقون المهنة. نشر القساوسة نشاطاتهم بشكل واسع، هناك العديد من الأشياء كان ينبغي عملها من هذه الجهة.

دعا الأمير الحاكم الأب سباستيان إلى قصره في العديد من المناسبات، وعند عودته كان يخبرنا عن لقاءاتهما، كان دومًا يتحدث عن الأمير الحاكم باحترام وبهجة. عندما عرف الأخير أنني رحالة وتاجر، وخبير في الأمرين حتى قدميَّ، دعاني في إحدى المرات لأقابله. استقبلني في ردهة كبيرة ولكن مُزَيَّنة ببساطة وتحدث إليَّ في النهاية. تحدث أولاً عن شعبه وبلده، وطوال هذا الوقت كان يبدو على وجهه ونبرة صوته اليأس المرير. قال لي: "المسلمون يحاصروننا تمامًا، لديهم كل شيء، ولكنهم يأتون ويغزون منازلنا، لقد تَحَطَّم البلد، انتشر الخوف وسط الناس، وبدلاً من دعم بعضنا والدفاع عن بعضنا، صرنا أكثر فُرْقة، ضُلِّلنا وشتتنا اليأس، كل شخص يبحث فقط عن نفسه وعائلته ويحاول توفيق الأشياء بقدر استطاعته. أتى الخوف بالعداوة، وصرنا بشعين وغير جديرين بالثقة، لا اعتبار للأهل ولا للأصحاب. كل شخص يفكر في حياته حتى لو لم يترك هذا حجرًا على حجر، لم نعد نرى رجلاً يُضَحِّي من أجل أصحابه، قريبًا لن نرى حجرًا واحدًا منتصبًا ومتبقيًا. لقد أغشى علينا الخوف، جعلت الكراهية دمنا باردًا، لا توجد إشارة إلى أن أحدًا سيأتي لينقذنا من أي مكان، أوروبا بعيدة، ولا يوجد وقت لنا، كل شخص يكافح لنفسه ويبحث عن امتياز له، لا نستطيع فعل شيء أكثر، لا نستطيع أن نجد الأمل والقوة بداخل أنفسنا. سيتم إفناؤنا. قريبًا لن يكون هناك أي أثر لنا. من يمكننا أن نشكو إليه كارثتنا ومن يمكن أن نطلب منه مساعدتنا عندما نرى أن كل ما يدور حولنا هو من خطئنا! إن كان بإمكاننا فقط أن نتحد، جورجيا ليست بلدًا صغيرًا ولا عاجزًا، ولكن ما الذي سيوحدنا؟ هذا يستحث أعداؤنا الذين يحولوننا إلى حمقى، نحن نفترس بعضنا: الملك ضد الملك، والأمير ضد الأمير، والنبيل ضد النبيل. الناس غير مستقرين، ولم يعودوا يعرفون أي شيء عليهم أن يختبئوا منه، الغازي المسلم، أم سيدهم، أم المجاعة أم الكفر أم

المرض..".

هذه الصراحة الموجهة إلى رجل غريب لم تكن متوقعة من الأمير الحاكم، وكنت مندهشًا قليلاً من ذلك. أي تعزية من جانبي ستكون قلة لياقة واضحة، لذلك ذكرت اسم الله واختبأت خلف قدرته الكلية: الوحيد القادر على تلطيف كل الجراح، وتجفيف كل دموع اليأس، وإقامة كل الساقطين على أقدامهم. قلت: "سيدنا ومخلصنا لن يضحي بقطيعه". ابتسم الأمير الحاكم على هذا، ابتسم بمرارة وبيأس وكأنه في الوقت نفسه يحاول تأكيد كلامي. ثم غيَّرت الحديث إلى التجارة، قال لي: "التجارة مع أوروبا يمكنها أن تسمح لنا بالتعافي قليلاً وأن نقف على قدمينا". بدا أنه فكر كثيرًا في ذلك، في عدد الصادرات الممكنة وما أمل في أن يتم استيراده في المقابل. تحدث عن فتح قنوات التجارة وقام باقتراحات متبصرة ومثيرة جدًا للاهتمام. وعدته بأنني سأُضَمِّن تلك الأفكار المهمة في تقريري الأول الذي سأرسله إلى البلاط الملكي، بحيث يمكنهم أن يناقشوها في وقت مناسب ويمكن أن يؤدي ذلك إلى بعض التقدم. في النهاية، طلب مني أن أتحدث إليه عن أسفاري وسمح لي بالحديث في النهاية. لا يمكن بأي الأحوال أنه يُظهِر تعليمًا عظيمًا، ولكن كان لديه ظمأ كبير للمعرفة، وكان يستقبل كل شيء بسرعة ودون جهد. تحت الظروف الأخرى وفي شروط أخرى لكان عالمًا بارزًا، ولكن القدر وهب له السلطة في مكان ضعيف، وكان مجبرًا على قضاء معظم شبابه في محاربة الأعداء الخارجيين وفي النزاعات التي لا تنتهي مع الأعداء الداخليين، عادة ما ينام بملابسه الخارجية وأسلحته في يديه، من آنٍ لآخر يفقأ عيني أمير أو آخر، متكيفًا مع فساد وتكاسل الكهنوت، متجاهلاً النبلاء الذي يبيعون خدمهم كعبيد، ومتسامحًا مع تملقهم، ومن آنٍ لآخر يقوم هو نفسه بتملقهم، متخذًا طريقًا دبلوماسيًا ذليلاً لمصالحة الأمراء المارقين، وإن فشل في هذا العمل، يستأجر الجنود المرتزقة من وسط الكفار ويدفعهم وسط شعبه.

طلب مني الأمير الحاكم أن أخبره عن أسفاري بالتفصيل، كان مهتمًا بكل شيء: إدارة الدولة، التاريخ، المبادئ العلمية ومستويات تطورها، الفن، المناخ، العُدّد الحربية، الزراعة، الأسواق.. كان مهتمًا بالملابس وأشكال وأحجام المساكن، هو سألني حتى أين وكيف يقومون برعي القطيع والعناية به في الشتاء. في النهاية شكرني وطلب مني أن أزوره مجددًا وكأني على نفس مستواه، قلت له: "إن كان لدى عظمتك الوقت، سيكون دومًا مصدر فخر لي أن أزورك وأتحدث معك". ضحك على ذلك ولم يقل شيئًا آخر.

إن كان لديَّ الوقت لأكمل هذا الكتاب سأعود مجددًا إلى هذا الأمير الحاكم المدهش وأصف حياته المُعَذَّبة بالتفصيل، طالما أن تلك الحياة المؤثرة غير المعتادة هي في الوقت نفسه سيئة الحظ ونموذجية. كان يُذَكِّرني بشعاع من الضوء مغلق عليه في قبو مظلم، مؤمنًا بأنه لن يستطيع شق الظلام للامتزاج مع الشمس، ويحاول جاهدًا أن يُوَفِّق نفسه مع البيئة التي كان عليه أن يعيش فيها، هو المُعَلَّق من وقت طويل في شبكة عنكبوت الجهل والتآمر، والذي ينهي حياته أخيرًا بمأساة بشعة. سأصف كل ذلك لو استطعت في الوقت المناسب، أما الآن فأنا راضٍ بما قلته، وسوف أضيف فحسب أنه في هذا المساء عندما أخبرت أنطونيو بحواري مع الأمير الحاكم، مضيفًا بحزن أن الله ضحى بهؤلاء الناس ولا يوجد أمل في استمرار هذا البلد – هذا الذي يعتبر موضوع بهجة الكتاب القدامى، قال أنطونيو لي:

"هذا غريب يا بارتولوميو: أن تسبب لك رؤية هذا الأمير الحاكم النبيل فقدان الأمل، بينما كنت سأفقد الأمل لو لم أره. لم تُتَح لي فرصة الحديث إليه، ولكني كنت أراقبه في الاستقبال والمأدبة، وأنا أعرف أن ما تحدثني عنه الآن صحيح تمامًا. إنه شعاع ضوء مغلق عليه في قبو مظلم، هذا قول طيب يا بارتولوميو، ولكن ألا تستدعي ما قاله الإنجيلي: 'والنور يضيء في الظلمة؛ والظلمة لا تدركه'[(6)]. كل شيء ينقص نبلاءه اجتمع فيه. وهذا هو سبب أنهم يزدرونه. ربما لاحظت أن الجميع يكرهونه. هذا حسن يا بارتولوميو، لأنه طالما أن الشر لم يطفئ الكراهية، تبقى الطيبة حية. حياة الأمير الحاكم عذاب شديد، ولهذا السبب لن يتم تدمير البلد. يتم تدمير البلد عندما لا يكون هناك أحد قادر على المعاناة".

كما ذكرت فقد قضينا الشتاء في المدينة. قَدَّم لنا الأمير الحاكم أفضل سكن بإمكانه تقديمه. بالطبع في بلدنا لن نطلق على هذه الظروف التي كان علينا العيش فيها متوسطة دعك من أن تكون طيبة، ولكن كان من المستحيل أن نحلم بظروف أفضل. على أي حال، جئنا هنا من أجل العمل، وكنا معدين لكل أنواع الصعوبات. مضى عملنا بشكل طيب. كان الأمير الحاكم سعيدًا بعمل الحرفيين، كما قال شخصيًا لقائد بعثتنا، وكما أعلن ذلك عن طريق خدمه في مناسبات عدة. بادر الأب سباستيان بمهمة عظيمة ونبيلة: بذكائه الحاد ودبلوماسيته سريعة البديهة كان ناجحًا في مواجهة العديد من المعارضات لقرار أن يؤسس مدرسة، حيث يتم تدريس العديد من مبادئ العلوم وأيضًا اللغة اللاتينية إلى جانب اللاهوت. لم يدّخر الرهبان جهدًا، لم يعتبروا أن هناك عملاً أقل من قَدْرهم، قاموا بكل شيء يمكن أن يقوم به الإنسان، وقَدَّموا بأخلاقهم العالية، وخضوعهم لله وعملهم المراعي للضمير نموذجًا مثاليًا. وفوق كل شيء، كان أهل البلد سعداء من كون العديد منا بارعين في العلاج. كان أنطونيو ماهرًا بشكل خاص في هذا المجال. لم يكن يعرف العلاج بالأدوية والأغذية فحسب، ولكن كانت لديه معرفة بالجراحة. في البداية، نظر الناس إلى السكين بخوف وعدم ثقة، ولكن برؤية الطريقة المتميزة التي يعالج بها الناس، أصبحوا معتادين عليه، وسريعًا لم يستطع أنطونيو مجاراة الطلبات. أنا عرفت بنفسي القليل عن العلاج، وبالتالي كنت أتبعهم وأساعد بقدر إمكاني عندما يأخذونه ليزور مريضًا. وعندما أذهب بدوري لشئون التجارة كان يصطحبني. كنا نتحدث معًا إلى الأمراء والنبلاء، كنا نحدد الطرق التجارية ونمهد الأرض، في هذه الشئون أوقفتني حكمته ونصيحته المفيدتان على أرضية صلبة في العديد من المناسبات.

كان القساوسة يسكنون بعيدًا، وأنا وأنطونيو كنا نقابلهم قليلاً، ولكن على الرغم من ذلك، كان النفور بين الأب سباستيان وأنطونيو يتزايد يوميًا. سبب هذا كان العلاج الطبي. المشكلة كانت في أن الرهبان يعالجون باسم الله، وعندما يعالجون شخصًا كانوا ينسبون ذلك إلى رحمة الله، وليس إلى معرفتهم ومهارتهم. لا يمكن أن يُلاموا على ذلك طالما أن الشخص الذي يَشفى من مرض شديد وأيضًا راعيه يستمعان بإيمان وانتباه عظيم إلى وعظ الرهبان، ويتعلمون بحماس ما يريد القس أن يعلمهم إياه، وسيتم تطهيره تدريجيًا من التقاليد التي يتبناها الكفرة والمؤمنون المتبقون بالعقائد القديمة. كان أنطونيو يتصرف بشكل مختلف. كان يعالج وفي الوقت نفسه يُعَلِّم العلاج. كان يُعَلِّم كيف تتجنب المرض مجددًا، وما الذي يمكن أن يساعد عندما تظهر أعراض هذا المرض أو ذاك، وكيف يجب أن تتغير الضمادات، وكيفية استخراج الصديد، وما هي الوسائل لعلاج السخونة

الشديدة بالجسد. كان أنطونيو على حق. نحن جميعًا بين يدي الله كما هو معروف، ولا توجد شعرة تسقط من رأسنا من دون إرادة الله، ولكن هذا لا يعني أنه يجب علينا ألا نعرف ما نحن قادرين على معرفته. لم يستطع أنطونيو إنكار إيمانه وكذلك الرهبان. كان العراك حتميًا. لهذا السبب أظهر أنطونيو في رأيي ذكاء وبصيرة عظيمين عندما قرر أن يصطحبني في رحلة إلى الجبال في الربيع. كان لديَّ سببان لهذه الرحلة إلى الجبال: الأول، أنه كان من عادتي أن أذهب إلى أي مكان أستطيع الوصول إليه بقدمي وأن أرى كل شيء بعينيَّ، الآخر – وهو السبب الرئيسي – هو أن المدينة مَدَحَت العسل المحلي والأنواع المتعددة من الجلود، والأهم مناجم النحاس في الجبال التي قيل إنها ثرية جدًا. كنت أريد أن أرتحل مبكرًا، ولكن الطريق كان وعرًا في الشتاء بسبب السقوط الكثيف للثلج.

كنت سعيدًا لأنني عرفت بقرار أنطونيو. ولم يكن الأب سباستيان أقل سعادة، فهو لم يكن يعرف كيف يتجنب العراك.

وهبنا الأمير الحاكم وثيقة الحصانة، أرسل معنا رسالة خاصة إلى الأمير المحلي، وجعل خمسة رجال مسلحين يصطحبوننا تحت أمر النبيل الشاب، وانطلقنا في بداية أبريل.

لم تكن الجبال بعيدة جدًا. غادرنا المدينة قبل الفجر، وفي المساء، بعد غروب الشمس، كنا قد وصلنا بالفعل إلى مقصدنا.

عندما وصلنا إلى قمة التل الأخير ووضعنا قدمنا على الذروة، تَكَشَفت صورة أخاذة أمام أعيننا: تحتنا، وادٍ عشبي كبير ومن حوله جبال عالية، كان هناك أربعة فلاحين مرئيين وعلى مسافة كبيرة من بعضهم. كانت منحدرات الجبل تُسقِط الثلج، ولكن الذرة لا تزال مغطاة بالبياض المذهل، الذي يلمع بروعة تحت أشعة الشمس الغاربة. الغابات على منحدرات الجبال كانت باللون الأخضر، شجر اللوز والبرقوق كان مثمرًا بالفعل في القرى. في مركز الوادي، كان ينحدر نهر قصير وضيق إلى الأسفل، وكان صوته البعيد المندفع يصل لآذاننا. تل عالٍ في أقرب قرية، وقلعة ضخمة تلوح باللون الرمادي القاتم.

أرسل قائد الفرقة واحدًا من أتباعه أمامنا ليدع مضيفنا يعرف بوصول ضيفيه، وسار بقيتنا ببطء إلى أسفل عن طريق المنحدر.

كان قصر الأمير تحت القلعة، عند الهضبة. لاحظنا هذا عندما دخلنا إلى القرية، وكلما اقتربنا منه اقتنعنا بأنه لو لم يكن أفضل من قصر الأمير، فهو ليس أقل منه. البناء الرئيسي – الحجرات السكنية للأمير وعائلته – كانت حجرية، وسطحه من الطوب، وهو محاط من ثلاث جهات بشرفات خشبية واسعة مع درابزينات مزخرفة بعناية. عدد من البنايات الخشبية تقف على مسافة: مربعات الخدم، مخازن الحبوب، والإسطبلات والعديد من أنواع الأماكن والمخازن. حولها كانت هناك ساحة كبيرة محاطة بالعشب شديد الاخضرار.

جاء مضيفنا ليقابلنا في فناء القصر. أظن أنه في الأربعين من عمره، طويل وقوي، ولكن كان لديه وجه فاتر، وخدان مترهلان ورخوان. كان هناك بعض البياض على شعره الكثيف وعلى جانبي

شاربه الطويل، كان حديثه سلسًا مع تلعثم خفيف، وكان ينظر إلينا بعينين متشككتين وغير واثقتين.

كان الإعداد للعشاء على قدم وساق في البلاط. طلب الأمير من خادمه أن يُحضِر الحقائب، وأن يضع الجياد في الإسطبل وأن يعتني بالناس، ودعانا – قائد الفرقة أنا وأنطونيو – لنصعد إلى الردهة الكبيرة الثرية المزينة، وأجلسنا على الكراسي ذات الذراعين والمساند المزخرفة بشكل جميل، والمنحوتة من لوح خشبي واحد.

وهناك قَدَّمنا إلى عائلته: زوجته، وهي امرأة ذات جمال لا يقارن، وأطفاله، ملاكان، فتاة في العاشرة، وصبي في التاسعة. الجورجيون، سواء كانوا رجالاً أم نساء، هم في العموم أنيقون وحسنو المظهر، ولكن شخصيتهم، التي عادة ما لا تتناسب مع جمالهم تترك علامتها الواضحة على المظهر الخارجي للكبار. ولكن إن كان الإنسان حقًا صُنِع على صورة الله ومثاله، كما عَلَّمنا الكتاب المقدس، يمكن أن يقال إن ذلك يصح على الأطفال هنا أكثر من أي أحد آخر. لم أرَ مثل هؤلاء الأطفال الجميلين في أي مكان آخر. أنت تنظر إليهم وترى بوضوح أرواحهم الطاهرة والنقية تحدق فيك من أعينهم المعبرة الرائعة. كان أطفال مضيفنا الأمير مؤدبين جدًا ومهذبين ويملكون فطنة وحذقًا، إلى جانب تألق جمالهم الخارجي وحسن منظرهم. زوجة الأمير بدت امرأة طيبة، متواضعة ومُراعِية، تَحَدَثَت قليلاً، وكان في عينيها حزن غير مفهوم.

سألنا الأمير عنا ومن أين جئنا، ولكن ليس بالطريقة التي سألنا بها الأمير الحاكم – بالتفصيل عن كل شيء – ولكن بالأحرى بشكل سطحي ويمكن أن أقول من دون اهتمام. في الوقت الذي بدأنا فيه الإجابة عن أسئلته كان يومئ برأسه إلينا بطريقة توحي بأنه استمع إلى هذه الإجابات من عصور طويلة مضت، وسافر تلك المسافة وجاء إلى بلدنا على قدميه واستنشق رائحته، على الرغم من أننا أدركنا سريعًا أنه لم يسافر من بلد إلى بلد فحسب، بل أنه لم يزر عاصمته نفسها سوى مرة واحدة.

وضعوا عشاء طيبًا، والكثير من الطعام والشراب، ولكن هذا العشاء كان مشابهًا بشكل ما لوجه الأمير الفاتر. في خرق للتقاليد الجورجية، معظم من كانوا على المائدة هم أعضاء من العائلة، والذين ليسوا كذلك لم يتحدثوا إلا قليلاً وبأصوات منخفضة، وتقريبًا بنبرة كئيبة. بعد الإفطار في الصباح التالي أمر الأمير خادمه بأن يُحضِر امرأة عجوز ترتدي الأسود من القرية، وعهد بنا إليها.

قال للمرأة: "ضعي هؤلاء الرجال في منزلك واعتني بهم جيدًا من أجلي. أخبري خادمي عن الطعام والمؤن الذي تحتاجون إليها وسوف يقدم لكم كل شيء. أَعدِّي الوجبات والغسيل في وقتها، وحافظي على نظافة المنزل والأشياء الأخرى، ولا تترددي في القيام بأي شيء يطلبانه. والآن امضي بهما! وفي المقابل سوف أتنازل عن كل المال المدين به زوجك وابنك".

أجابت المرأة العجوز بخضوع: "ليهبك الله حياة مديدة يا سيدي".

كانت المرأة العجوز تعيش في أطراف القرية. كان لديها فناء صغير، ولكنه نظيف، حيث ينتصب بيت خشبي كبير على أكوام خشبية كثيرة. ضم البيت ثلاث حجرات، اثنتين منها خصصتهما

المضيفة لي ولأنطونيو.

كان كلب الحراسة الخاص بمضيفتنا يصدر ضوضاء كالجحيم بنباحه، وكان يحاول أن يفك رباطه طوال الوقت الذي كان فيه خدم الأمير يستخرجون محتويات حقائبنا. ولكنه هدأ قليلاً بعدما رحلوا، وعندما خرجنا إلى الحديقة في المساء، كان ينظر مرتابًا إلى أنطونيو لبعض الوقت، ولكن كأنه وصل في النهاية إلى قرار، هز ذيله ببطء.

ديفيد

دومًا أجد من السهل عليَّ أن أُعَوِّد نفسي على السكان المحليين وأن أتقرب منهم (لا أستطيع الحديث عن أنطونيو)، ولكن هذه المرة صادفتنا متاعب عظيمة. لم أرَ على الإطلاق مثل هؤلاء الناس الكئيبين القاتمين الصموتين في أي مكان. إن أوقفتهم وتحدثت إليهم، سيستمعون إليك بحرص، وطالما أن الأدب والتهذيب متغلغل في لحمهم ودمهم حتى أقدامهم فإن هذا لا يسمح لهم بأن يتصرفوا بطريقة أخرى، إلا أن ردودهم تكون جافة ومقتضبة في جوهرها، من دون كلمة زائدة، لا يعبرون عن أي اهتمام بنا، وهم يختفون في لحظة طالما وجدوا عذرًا مناسبًا. ولا حتى الهدايا – التي تعتبر اختيارًا مجربًا وموثوقًا فيه لكل مرتحل – كانت مفيدة بأي شكل هنا. سيقبلون الهدايا، وهذا أيضًا نابع من أدبهم، حتى لا يشعر الضيوف بالإهانة، على الرغم من أنه من الواضح أن تلك الهدايا لن تساعد على إقامة علاقة لاحقة.

كانت الحياة عمومًا هادئة بشكل عجيب هنا، وكأن وترًا قد انقطع. تمضي الحياة ساكنة وبطيئة وفي صبر طويل.

من البداية بدا هذا لي انطباعًا عامًا وغامضًا، مثل ذلك الذي يأتيك في لحظة ما من دون سبب محدد في مكان غير مألوف، ولكنني سريعًا اقتنعت بأن هذا الانطباع له أسس حقيقية ومثيرة للتفكير: حتى الآن كنا نعيش في فراغ لبعض الوقت، لم يسمع أحد أي شخص يغني. أي شخص يعرف الجورجيين سيدرك أن هذا شيء عجيب ومفاجئ. يُغَنِّي الناس في كل مكان وطوال الوقت. الغناء عَصَب أساسي لوجودهم، يمكننا أن نقول حتى إنه واحدة من وسائلهم الأساسية لتحمل الحياة. ينتزع الجورجيون عن طريق الغناء كل سموم المشكلات والتفاهات التي يمكن أن يراكمها هذا العالم في قلب الإنسان، ويُعَبِّرون في غنائهم عن كل أنواع المشاعر، سواء الكآبة أو البهجة، الغضب أو الفرح، الحب أو الكراهية. ولكنني لم أستمع إلى غناء هنا. وإلى جانب ذلك، لم أرَ الأطفال يتوجهون وراء القرية ويدخلون الغابة، في اللحظة التي يحل فيها الغسق لا يسمح لهم آباؤهم حتى بأن يذهبوا خارج حدود أفنيتهم.

كلما راقبت هؤلاء الناس بدأت في الشك من أن هناك نوعًا من الغموض المختبئ خلف كل هذا، في بعض الأحيان يبدو لي أن قوة ما وراء طبيعية لَعَنَت هذا المكان بسحر مجهول وسيطرت عليه بخوف غامض، يُثقِل على الوادي الكبير، ويتخلل كل شيء، ويستحوذ بخبث على أنفاسه ويربض، وينتظر ويتوقع بنفاد صبر شره أي تمهيد لتغيير الواقع من أساسه، ثم يدير دوامة سوء الحظ.

عندما شاركت شكوكي مع أنطونيو بدا أنه يشعر بالأمر نفسه، صار الخوف الغامض أكثر وضوحًا.

هذا لم يغيّر شيئًا، فنحن (أو على الأقل أنا) لم نبحث عن سبب هذا الخوف، لأنه بغض النظر عن مصدره، لم يُعَطِّلني عن القيام بعملي. البرود والأدب اللا مبالي كافٍ لاحتياجاتي: سريعًا جدًا أروني العديد من الجلود، الكثير منها متخذ من حيوانات برية لم أكن أعرفها، شرحوا لي الطريقة المحلية في الصباغة وصناعة الملابس الجلدية، تعلمت تقاليد تربية النحل وكيف تعتني بالقفير والنحل، التي عرفت أنها كائنات هادئة ومطيعة، عرفت أيضًا كيف يجمعون العسل، ورغبت أن أرى ذلك بعينيَّ في نهاية مايو.

الآن نشطت أخيرًا، كان الجو جميلاً، وفي أحد الصباحات تحركت أنا وأنطونيو لنبحث عن مناجم النحاس.

في هذا الوقت كنا سمعنا اسم ديفيد عدة مرات. لا أحد فينا اهتم بذلك حتى ذلك الوقت، ولاحقًا تذكرنا أنهم يذكرون اسمه دومًا بصوت منخفض، سواء من منطلق الخوف أو الاحترام، وفي الوقت نفسه يرسمون علامة الصليب.

استيقظنا عندما حل الفجر، أسرجنا الجياد وأخذنا بعض المؤن، وتركنا القرية وتبعنا المنحدر إلى أسفل. لم نجد مرشدًا، وكنا مضطرين أن نتحرك وحدنا.

سرنا إلى جانب التلال في اتجاه الشرق، وقضينا الليل في كهف صغير، وفي اليوم التالي رجعنا المنزل قبل حلول المساء. بَحْثُنا الأول لم يصل إلى أي أثر لمناجم النحاس على الإطلاق، على الرغم من أننا لم نفقد أملنا لأنه ما زال أمامنا أماكن أخرى لنزورها.

عدنا قليلاً للوراء، وفي الحقيقة لم يكن هناك طريق للقدم هناك ولا إشارة إلى كون أي أحد سار في هذا الطريق، ولكننا وضعنا ثقتنا في الجياد المعتادة على السير وسط الصخور والوديان واتبعنا المنحدر خلال الغابة. لم نصل لمنتصف المنحدر عندما أوقف أنطونيو حصانه وبدأ في النظر بانتباه إلى شيء بالأسفل.

سألته، وأنا أتبع تحديقة عينيه: "ما الأمر يا أنطونيو؟".

أجاب أنطونيو وهو يشير إلى الأسفل: "يمكنني أن أرى نوعًا من البناء، يبدو وكأنه قلعة".

نظرت، لبعض الوقت لم أستطع رؤية شيء، ولكن في النهاية رأيت وسط الأشجار خطًا رفيعًا لحائط فوقه أسوار لقلعة.

أكدت تخمينه: "إنها قلعة بالفعل".

تساءل أنطونيو، هازًا كتفيه: "هذا مفاجئ، ما الذي تفعله القلعة هنا في الغابة؟".

أثناء استمرارنا في طريقنا ظهر البناء أحيانًا، واختفى في أحيانٍ أخرى وسط الغابة. بعد وقت قصير وجدنا طريقًا ممهدًا. كان مائلاً من اليسار وينحدر إلى أسفل. انطلقنا في الطريق. وسريعًا ظهر البناء كله، وكنا مقتنعين بأنها قلعة بالفعل. في المنحدر، في وسط الغابة، كانت هناك ساحة مرتفعة، كانت القلعة الصغيرة تقف محاطة بجدار عالٍ.

فجأة، أصبح صوت الكلاب النابحة مسموعًا. بدأت العديد من الكلاب تنبح في وقت واحد بصوت قوي وعميق وبشع.

توقفنا شاعرين بالمفاجأة والذهول. هل يمكن لأحد أن يعيش حقًا في هذه القلعة المعزولة البعيدة جدًا عن القرية. قبل أن نفكر في أي شيء، توقف النباح، وبدأنا نقتنع بأن كلينا كان يتخيل الأمر.

وعند توقف النباح واصلنا طريقنا. وسريعًا رأينا بوابة بقفل حديدي ملتصقة بالجدار. وعند البوابة، وجدنا العديد من كلاب الحراسة تقف على قدميها الأماميتين وكأن البوابة ملطخة بهم. كنت آذانها منتصبة، وأخطامها تخترق قضبان البوابة، وأسنانها الحادة ظاهرة، وتنظر إلينا بصمت ولكن بغضب.

الشيء الأكثر إدهاشًا والذي لم نتوقعه هو أنه في وسط الكلاب كان يقف رجل طويل عريض المنكبين أجعد الشعر وأسود. كان مظهره كله أسود. كان يمسك قضبان البوابة وينظر إلينا بوجه صامت ومذهول من دون أن يتقلص عصب فيه.

عندما تعافينا من صدمتنا الأولى، صاح أنطونيو فيه بالجورجية – وفي رأيي كان مقتنعًا بأن كل هذا حقيقي وليس هلوسة: "مرحبًا يا صديقي".

بالاستماع إلى صوت أنطونيو أصدرت الكلاب نباحًا ضعيفًا ثم صمتت. لم يتحرك الرجل الأسود، وظل يحدق فينا بالنظرة المتحفظة نفسها.

كرر أنطونيو التحية بالتركية. وهدرت الكلاب مجددًا. ولم يتحرك عَصَب من الرجل الأسود.

فكرت أنه ربما لا يعرف الجورجية ولا التركية، ناديته بالعديد من اللغات الأخرى. ولكن الرجل الأسود حدق فينا بصمت من دون أن يرمش له جفن. هل هو أصم وأبكم، هل يعرف أي لغة من اللغات؟ هل لا يرغب في إجابتنا؟

ما الذي تَبَقَّى لنا لنفعله؟ أدرنا جيادنا وواصلنا طريقنا. قبل أن يميل الطريق إلى اليمين وندخل إلى الغابة، كان بإمكاننا الشعور بتحديقة الرجل الأسود الثابتة من خلفنا، وبدا لي أن في هذه التحديقة شيئًا غامضًا وشريرًا.

كل من أنطونيو وأنا كانت لدينا فكرة تدور في رأسينا: تلك القلعة الغامضة وهذا الخوف الغامض في الوادي متشابكان. وفي المساء، عندما أحضرت لنا مضيفتنا عشاءنا سألتها بأهدأ وأخف نبرة ممكنة: "ما القلعة التي رأيناها في الغابة؟ ومن يعيش فيها؟"، تأكد افتراضي أكثر. نظرت إليَّ المضيفة سريعًا ولم تضع عينيها في عينيَّ مجددًا.

رسمت علامة الصليب وقالت: "إنها قلعة الشيطان، لا تدع طعامك يبرد، سوف أحضر لك النبيذ على الفور".

كانت ستمضي على الفور بعد أن أحضرت لنا النبيذ، ولكني أوقفتها وأخبرتها أنني رأيت رجلاً في القلعة. رأيت الخوف على وجهها عندما استمعت إلى ذلك.

"من المفترض أنك تصورت ذلك يا سيدي، لقد كان الشيطان، فليحفظنا الله!"، رسمت علامة الصليب مجددًا، ومدركة أنني سأسألها أكثر، أضافت بلهجة متوسلة: "لا تسألني أكثر يا سيدي، لا يمكن للمرء أن يتحدث عن هذا!".

في تلك الليلة، تكلمت أنا وأنطونيو حتى وقت متأخر، ووصلنا إلى افتراضات مختلفة، وعلى الرغم من أننا لم نفهم كل شيء تمامًا، وصلنا إلى نتيجة غريبة وحيدة: الأمر يبدو وكأن هناك خوفًا مزدوجًا يستحوذ على هؤلاء الناس – إنهم خائفون، وهم خائفون من كونهم خائفين.

في أحد الأيام جعلنا الأمير يخوض في هذا الموضوع. كان الأمير سخيًا جدًا في الاعتناء بحاجاتنا والاهتمام بنا، وكان يجلب لنا وجبة شهية مرة أو مرتين في الأسبوع، ولكنه كان يُذَكِّرنا من آنٍ لآخر أن تسليتنا لم تكن من ضمن واجباته، وإن وَفَّر لنا الضيافة فهذا نابع فقط من كرمه وطيبةً قلبه. فليسامحني الله، ولكن بدا لي أنه كان يدعونا كثيرًا حتى يتباهى أمام الغرباء. وبعيدًا عن ذلك، سأله أنطونيو عندما كنا وحيدين على المائدة:

"معاليك، القلعة الموجودة في الغابة، هل هي ملكك؟".

نظر الأمير بتشكك إلينا، أولاً إلى أنطونيو ثم إليَّ، وقال في النهاية:

"إنها ليست ملكًا لأحد، إنها ملك للشياطين".

"الشياطين؟".

"نعم، إنها في أيدي الشياطين منذ الأزمان الغابرة".

"ولكن أنا وبارتولوميو رأينا رجلاً في الفناء".

تغير لون الأمير.

"كيف أمكنكما رؤيته؟".

سرنا في الطريق الموجود بجانب القلعة. رأينا رجلاً أسود. أعتقد أنه أصم وأبكم. كان هناك الكثير من الكلاب حوله".

بدأ شارب الأمير في الارتعاش ولم تسعفه الكلمات لوقت طويل.

قال في النهاية: "من المؤكد أنه الشيطان". وصار غاضبًا بشكل غير متوقع.. "تلك القلعة خارج حدودنا! سيصيبكم الأذى! إن عرف الناس أنكما اقتربتما من القلعة سيرجمونكما، ولن يكون هناك شيء بإمكاني فعله لمساعدتكما".

ثم هدأ وانتقل فجأة للحديث عن عودتنا إلى المدينة. كان واضحًا في رغبته في أن نغادر في أسرع وقت ممكن، على الرغم من أنه لم يستطع التعبير عن ذلك صراحة أمامنا.

بالتالي، أصبح واضحًا أن الأمير كان خائفًا بنفس قدر الناس، إن لم يكن أكثر منهم.

ولكن ما كان سبب هذا الخوف؟

كان دومًا لديَّ أمل في أن ينكسر جدار عدم الثقة الذي نصبه هؤلاء الناس حولنا من البداية آجلاً أم عاجلاً، طالما أن عدم الثقة ليست من الصفات الطبيعية للإنسان. بالطبع، لم يكن بإمكاني تقرير كيف أو متى سيذوب الثلج، ولكن لم يكن لديَّ شك في أنه سيذوب، وفي النهاية ذاب بالفعل.

عرف أهل البلد سريعًا أنني وأنطونيو نملك مهارات علاجية. نظروا لهذا في البداية بعدم ثقة، ولكن بعدما أوقفنا راعيًا على قدميه في يومين، وذلك بعدما جرحه حيوان مفترس، وكان مكتوبًا عليه الموت كما افترضوا، تحولت عدم الثقة إلى تشكك فيه قدر من النية الطيبة، ثم تحول إلى بهجة مفاجئة. وعلى الرغم من أن الخوف ظل لبعض الوقت يسكن هذه البهجة، طالما كانوا يميلون لرؤية السحر أكثر من المعرفة والمهارة في فننا، إلا أنهم أصبحوا أجرأ، وكثيرًا ما جرؤوا على دعوتنا لزيارتهم في منازلهم، وعهدوا إلينا بتفاؤل عظيم بالمرضى، وببطء ولكن بثقة، تصاعدت المشاعر بيننا حتى إن الواحد منهم لم يعد يخفي أحزانه ومخاوفه وشكوكه عنا، وبسرية عظيمة قالوا لنا في النهاية كل شيء.

أنا لا أعرف ما مدى صدق قصتهم. من جهتي، يمكنني فقط أن أقول إن أهل البلد رأوا بعض الأشياء بأعينهم، والأمر من هذه الجهة موثوق فيه، الأشياء الأخرى كانت منتجًا من خيالات الناس الخرافية كما هو واضح، ولكن بشكل عام، ففي رأيي كان الحقيقي والمختلط ممتزجين بخبث ومتشابكين مع بعضهما.

كانت هناك عصابة من اللصوص المسلحين تُرهَب البلد، شرقه وغربه، وكما يبدو استقرت لعدة سنوات في القلعة المهجورة، وذلك من زمن طويل. رئيس العصابة، اسمه ديفيد، هو رجل لا يخاف ولا يرحم، وهو مخادع، كان شقيقًا – أو في الحقيقة الأخ غير الشقيق – لزوجة مضيفنا الأميرة الجميلة. أبوه، السيد المحلي، وقع في حب خادمته وبدأ علاقة سرية معها. أدركت السيدة على الفور أن زوجها غير مخلص عندما صارت الخادمة غير الحيية حاملاً، وبدأ يظهر انتفاخ بطنها. كانت السيدة ذكية، وكان اهتمامها الأول هو اسم الأسرة. لم تستسلم لرغباتها، ولم تغضب، وسامحت زوجها على خطيئته بهدوء، وأرسلت الخادمة الحامل إلى الأراضي المنخفضة، حيث جعلتها في يد قريب بعيد. بعد هذا، حل الهدوء مجددًا على العائلة ونسي الجميع الخادمة التي اخترقت هدوءها، خاصة أن الملك السابق كان قد مات ساعتها. ولكن بعد عدة سنوات – كانت ابنة السيدة الوحيدة، التي هي زوجة الأمير المحبوبة حاليًا، في الثانية عشرة من عمرها في هذا الوقت – ظهرت الخادمة المطرودة مجددًا في أحد الأيام، تصطحب ولدًا صغيرًا أشقر في حوالي السابعة من عمره، كان جميلاً كالشمس. توجهت الخادمة مباشرة إلى السيدة وطلبت جزءًا من الممتلكات، وفي الوقت نفسه هددت: "إن لم تعطِ ذلك لي طوعًا، سأرتدي الدرع، وأمسك بعصا حديدية، وأشعل البلد وأجلب العدل لابني ديفيد". أربكت تلك المشكلة السيدة كثيرًا. أن تنكر أن زوجها هو أبو ديفيد حقًا كان أمرًا مستحيلاً: الأخ والأخت كانا متشابهين وكأنهما حبتا فول. صحيح أنه بخلاف ذلك لم يكن هناك خطر على الممتلكات طالما أنه في حالة وصل الأمر إلى المحكمة لن يكون هناك شك في أنها ستأخذ جانب السيدة، وليس الخادمة العشيقة، ولكن الخادمة كانت تعرف جيدًا أن السيدة لن تسمح تحت أي ظرف أن تجعل الأمر محط حديث في البلد، سَتُفَضِّل أن تُقَدِّم كل الممتلكات عن أن

تقف أمام المحكمة لتتحدث عن عار عائلتها، لهذا السبب كانت متماسكة، وانتظرت بهدوء أن يندلع غضب السيدة، وأن يغلب الطبع التطبع. ولكن السيدة حسبت الأمر بشكل مختلف. حاولت لبعض الوقت أن ترشو الخادمة الوقحة بالهدايا وأن تُميت الأمر، ولكن هذا لم ينفع، فاستخدمت الوسائل الأنجع، ونتيجة لذلك اختفت الخادمة وابنها دون أثر في أحد الأيام. لم يسمع أحد عن مكانهما لوقت طويل، وربما لم يكن أحد سيعرف إن لم تعانِ السيدة من ضربات الندم وإن لم تعترف بفعلتها أمام قس بعد عدة سنوات، وذلك عندما شعرت باقتراب الموت. لم يكن القساوسة المحليون – وكما هو واضح لا ينبغي أن يطلق عليهم قساوسة، ولكن العديد منهم كانوا كذلك بالفعل – يحترمون خِتم الاعتراف ولا يعتبرون إفشاء أسرار الآخرين خطيئة كبيرة. في الحقيقة، في الوقت الذي ماتت فيه السيدة، عرفت المنطقة كلها بالأمر، ولأنها لم تكن قادرة على إسكات الخادمة الوقحة بالهدايا وعرفت أن عار عائلتها صار حديث البلد، اتصلت السيدة ببعض اللصوص المسلحين – لا يعرف أحد بأي طريقة – واختطفوا الخادمة وولدها سرًا من دون أن يثير ذلك شكوك أحد. مغامرة ديفيد كلها حتى الآن تمت تحت أعين السكان، وحكايتهم تبدو مصدقة لي شخصيًا. ما أصاب ديفيد بعد ذلك يحكونه بنفس الثقة، وكان صحيحًا، ولكنني لم أعرف في هذا الوقت ما المصادر التي عرفوا منها وإلى أي مدى ينقلونها من الواقع. هذه هي القصة التي يحكونها: أخذ قُطَّاع الطرق الأم والطفل إلى السوق في إسطنبول وباعوهما إلى أحد التجار اليونانيين. للعديد من السنوات اصطحبهما اليونانيون، وعانيا كثيرًا من الشقاء: الجوع، البرد، الإهانات، المرض. خلال كل هذا الوقت، كانت الأم تحاول دومًا أن تؤجج الكراهية في قلب ابنها لكي يكبر ويعود للوطن، ويسعى للثأر ويستولي على جزء من الممتلكات التي هي ملكه وفقًا للقانون. قبل موتها كانت أمنيتها الوحيدة هي: "إن أردت لروحي أن تستريح في الحياة القادمة، الحق الأذى بالشخص الذي ألحق الأذى بنا". وعلى الرغم من أنه أقسم على تنفيذ أمنية الأم الأخيرة، لم يكن ديفيد مهتمًا كثيرًا بممتلكاته البعيدة وتحقيق الانتقام، وبدلاً من ذلك حلم طوال طفولته كلها بالهرب من العبودية، وعندما ماتت أمه، ولم يعد هناك أحد ليهتم به سوى نفسه، مضى في تحقيق رغبته: هرب من مالكه وذهب إلى إسطنبول. يبدو أنه ارتحل للعديد من السنوات من بلد إلى آخر. عانى كثيرًا في البداية. متشرد، جائع، من دون علاقات، فقير، وأحيانًا كان يحيا على مهن عجيبة، وأحيانًا كان أناس طيبون يسكنونه لديهم، ومن آنٍ لآخر كان يعيش على حساب خادمات العائلات الثرية، هذا الذي لم يكن صعبًا على شخص وسيم مثله؛ وعندما يئس، انحدر إلى التسول. وسريعًا، كما يحدث عادة مع شخص يعيش هذا النوع من الحياة، أصبح مختلطًا بأناس مشبوهين. تورط أولاً مع اللصوص الصغار وأصبح معتادًا على السرقة في الأسواق والميادين العامة. ثم وجد نفسه ضمن عصابة من اللصوص المسلحين الذين كانوا يمثلون خطرًا حقيقيًا على التجار المرتحلين، عمل لبعض الوقت كقاتل مأجور، واتهم بقتل العديد من الناس. في النهاية أعاده القدر إلى جورجيا، حيث امتهن – مع العديد من قطاع الطرق الذين لا يهابون شيئًا مثله – خطف الأطفال وبيعهم كعبيد. لوقت طويل كانوا يتحركون، ينهبون ويسلبون وحصلوا على كم كبير من الذهب، ولكن في النهاية، قُبِض عليهم في شَرَك، ووقعت العصابة كلها في أيدي ملاحقي المجرمين الذين يحصلون على المال مقابل ذلك. حكمت المحكمة عليهم جميعًا بالموت، ولكن عندما قادوهم إلى السجن لتنفيذ الحكم، كان أحدهم غير موجود، وكان هذا ديفيد. قال أهل البلد: "لو لم يكن يرتدي طاقية الإخفاء، لم يكن ليستطيع أن يهرب هكذا من السجن". عندما تبدأ العقيدة الحقيقية في الانهيار في بلد ما،

يكون من المستحيل ألا تسود الخرافة فيها، لهذا السبب لم نشعر أنا وأنطونيو بالمفاجأة عندما نَسَب الناس هروب ديفيد من السجن إلى قوى خرافية. سواء كان هذا هو الوضع أم لا، عندما هرب من السجن شكَّل عصابة جديدة رأسها شخصيًا واستمر في عمله القديم. كان الجورجيون غير قادرين على فعل شيء تجاه العصابة. تجنب ديفيد كل الأشراك، وتَهَرَّب من كل محاولات القبض عليه، ووجد طريقًا للفرار من كل مطارديه. لم يعرف أحد متى وأين سيظهر هذا الرجل – الحَذِر والمتهرب كالحيوان البري – وأي قرية سينقضُّ عليها ومتى، ومتى وأين سيمضي في أي طريق. تحصّل سريعًا على سمعة الشيطان. قالوا إنه باع روحه للشيطان، ولا يمكن لرصاصة أن تخترقه ولا لسيف أن ينغرس فيه. لا يمكنني الحديث إليك عن الشياطين، ولكن عندما فكرنا في كل شيء، رأيت أنا وأنطونيو سببين واضحين لتهرب ديفيد: الأول أنه من المحتمل أنه بارع ومُصِرٌّ كالشيطان، وفي الوقت نفسه ماكر ومتوحش ولا يهاب شيئًا، السبب الثاني، وهو يعبِّر عن سوء حظ بشكل كبير – ومثير للعار إلى جانب أنه سوء حظ – أنه أمَّن لنفسه مكانًا آمنًا مستقرًا. العدو الأساسي للعصابة ليس مطارديها، وإنما الرحلات المستمرة وسط الغابات، الليالي التي تمضي بين الصخور والوديان أو في الكهوف، النوم الخفيف جدًا للحيوانات المتفرسة، الحذر الشديد، التوقع المتواصل للخطر. ليست المشكلة في كونه شخصًا شجاعًا أو ماهرًا، آجلاً أو عاجلاً سوف تتعبه تلك الحياة، تنهكه، ستعوزه الحماية وفي النهاية تصل حياته إلى المشنقة أو تحت سيف المُعدِم.لا شك أن ديفيد كان يعرف كل هذا جيدًا، وكان يبحث لوقت طويل عن ملجأ ثابت يمكنه أن يرتاح فيه، ينام بهدوء ويعيش بعيدًا عن الخطر. في هذا الوقت تَذَكَّر أمنية أمه الأخيرة وابتكر خطة ملائمة لجرأته. أولاً استكشف ودَرَس المكان جيدًا، ثم في أحد الأيام جاء مع عصابته كلها وانتقل إلى القلعة المهجورة. إلى جانب السكن بعيدًا في الغابة الكثيفة وأن يعيش في مكان مثالي تلجأ إليه العصابة المسلحة، كان للقلعة أيضًا ميزة عظيمة عرفها ديفيد جيدًا فيما يبدو واستغلها أفضل استغلال: منذ زمن غابر عُرِفَت القلعة بين سكان البلد على أنها "قلعة الشيطان". وفقًا لحكاية قديمة؛ سَحَر بعض الشياطين مالك القلعة، وجعلوه يجن ويشنق نفسه على فرع شجرة بفنائها، واستولوا هم على القلعة. في هذا الوقت، كان هناك العديد من الناس يعيشون في المنحدرات حول القلعة، ولكن لأنهم مرتعبون من الشياطين نزلوا واستقروا في الوادي. بعد ذلك، كانت القلعة دومًا في أيدي الشياطين، ولم يجرؤ الناس على الدخول بين جدرانها أو حتى أن يمروا من جانبها. زعموا أيضًا أنه في بعض الأوقات، غالبًا في الربيع والخريف، تَصدُر بعض الضوضاء الغامضة التي يمكن أن يسمعوها من القلعة. إن بنى شخص منزلاً في هذا المكان سيكون من غير الغريب أن سكان البلد، الذين لديهم فكرة مُشَوَّشة عن الإيمان العميق، سيعتبرونه شيطانًا، خاصة أن ديفيد اهتم بشكل خاص بهذا وقدم للسكان دليلاً لا مفر منه على شيطنته: دخل القلعة من دون صخب بحيث لا يسمع أي شخص أي شيء، وفي اليوم التالي أرسل العبد الأسود – العبد نفسه الذي رأيته أنا وأنطونيو عند بوابة القلعة – إلى الوادي، نصف عارٍ ومحاطًا بمجموعة من الكلاب، حتى يراه الرعاة الذين يخرجون بقطيعهم إلى حافة الغابة، وأن يُبَدِّد أي شك من أن الشياطين يعيشون في القلعة. لعب الرجل الأسود الدور بشكل رائع – ترك الرعاة الخائفون قطعانهم وهربوا من دون أن ينظروا وراءهم – وبعد ذلك، عندما أقام ديفيد وبقية أعضاء عصابته حفلات الشراب الفوضوية التي استمرت لثلاث ليالٍ، افترض السكان أن سبب هذا الصخب هو الشياطين، ولوقت طويل، لم يجرؤ الناس المرتعبون على مغادرة منازلهم. بعدها أرسل ديفيد العديد من الناس الذين أسروا

بصمت أميرنا في فنائه، وربطوه وأخذوه إلى قائدهم في القلعة. قبل ذلك، كان اسم الشيطان فقط هو المعروف، ولكن الآن، عندما سمع أميرنا الخائف أنه ديفيد نفسه التي باعته حماته في سوق إسطنبول، ارتعب جدًا. عندما قادوا الأسير بعيدًا، خاف أن يبيعه كعبد، ولكنه عندما عرف هوية ديفيد، فضَّل أن يباع كعبد. لم تكن لدى ديفيد إذن مشكلة في الوصول إلى اتفاق مع رجل خائف تمامًا، ومُضَلَّل بسبب الخوف. كان الأمير مستعدًا ليوافق على أي شيء طالما أن هذا سيحرر عائلته. عندما سمع في النهاية شروط ديفيد، شعر بالرضا، لأنه توقع شيئًا أسوأ. كانت تلك هي الشروط: الأول والأهم – حضور عصابة قُطَّاع الطرق يظل سرًا ولا يتجاوز الوادي الصغير، ثانيًا – طالما أن قُطَّاع الطرق بقوا في المكان، فتزويدهم بالغذاء والمؤن سيكون مسئولية الأمير. في المقابل، لن يطلب ديفيد نصف الممتلكات التي هي له قانونًا، وإن نهبت عصابات قطع الطرق الأخرى كل جورجيا، لن يقتربوا من المنطقة، ولو كان الأمر ضروريًا، ستتم حماية السكان من الأعداء والهجوم الآخر. قال ديفيد: "ولكن إن رفضت تلك الشروط، أو وافقت ولكن تخيلت أنه بإمكانك خيانتي، سأقتلك على الفور، أولاً سأجعلك تشاهد كيف سأحرق السكان، ثم سأجعلك تشاهد كيف سأجز رقبة أختي وابنة أختي وابن أختي، وبعد ذلك فحسب سأربطك بأفضل حصان لديَّ، وقبل موتك، سأسحبك فوق الأماكن المغطاة بأحدِّ وأقسى الصخور".

من السهل جدًا أن تدين شخصاً ما دمت لست في مكانه، ولا تراه سوى من الخارج، ولكن مع ذلك سوف أغامر وأقول هذا: إن كان في مكان أميرنا شخص آخر، شخص أقل جبنًا، فلن يُعَرِّض نفسه للمهانة بقبول تلك الشروط، لن يقبل بهذا النير المثير للعار، ولن يصير شريكًا لعصابة. ولكن أميرنا كان جبانًا، أغشى الخوف على ذهنه وقَمَع ضوء روحه الذي من دونه لا يمكن للإنسان أن يفهم أننا لم نأتِ للعالم ليكون همنا الأساسي فيه هو الحفاظ على الحياة حتى يقتلنا الموت.

بالتالي، وافق الأمير على الشروط ونفذها بطاعة مثيرة للعار. الأكثر من ذلك، ومخافة أن يُغضِب ديفيد، وليتأكد من سلامة أهله، زوده الأمير سنويًا بطعام أكثر من المطلوب في الاتفاق. وبعد هذا الخوف العظيم الذي عانى منه، اعتبر هذا الاتفاق من حسن حظه. وفي الوقت نفسه تمنى من قلبه ألا يستمر موقفه لفترة طويلة، وأن يقع قُطَّاع الطرق تحت يدي الأمير الحاكم، ولو لم يحدث، فآجلاً أو عاجلاً سيتركون المنطقة ليذهبوا إلى مكان بعيد.

حسنًا، ما الذي يمكن أن يفعله الناس وهم يرون حاكمًا مثل هذا.

في جورجيا، أستمع عادة لمقولة "مَثَل القس كمَثَل الناس"، التي هي في جوهرها تطابق الحكمة – وأنا أتحدث مجازيًا وفقًا لعرف الناس – التي كان يعلمنا إياها الفلاسفة منذ العصور القادمة: "المرء على دين أبيه". الأمور عادة تمضي بشكل أشبه بهذا، ولكن بعد ما رأيته في هذا المكان (وفي أماكن عديدة في جورجيا) سيكون من الأفضل أن تقلب المثل ليكون (مَثَل الناس كَمَثَل القس). من شروق الشمس إلى مغربها ينظر الناس إلى الأرض، ويغطي العرق الوجوه، يعملون من دون توقف. ويعتني سيدهم بالمتبقي. ولكن "المتبقي" يتضمن العديد من الأشياء التي يعتمد فيها قَدر الناس تمامًا على نوع السيد الذي لديهم. والناس هنا لديهم سيد جبان، وبوقوع حظه مع شيطانية ديفيد، أخاف بشكل أكبر الناس الذين كانوا خائفين بالفعل، هو منع كل الناس بصرامة من أن يغادروا الوادي وأن يذهبوا إلى أي مكان آخر، وليتأكد من هذا، جعل خدمه الأوفياء يراقبون

الناس. وعلى الرغم من أن الناس ليس بإمكانهم فعل شيء أكثر واستسلموا طوعًا أو قهرًا لقدرهم، إلا أنهم شعروا بألم شديد بالمقارنة بسيدهم وشعروا بأنهم يقومون بشيء خاطئ تمامًا. باعتراف الجميع، تجنب كل الناس الحديث عن هذا، ولكن كل الناس عرفوا جيدًا جدًا أن عصابة ديفيد كانت تخطف الناس والأطفال في أركان عديدة من البلد وكانوا يبيعونهم كعبيد في سوق مدينة آخالتسيخ[7]. كانوا جميعًا يعرفون، ولكنهم ظلوا صامتين. يقضون وقتهم بصبر مشين وينظرون إلى قُطَّاع الطرق وهم أحرار، ووسط عدم الفعل، صاروا بشكل أو آخر شركاء في أفعال العصابة الشريرة. كان الناس مرتعبين من هذا، ولكن ما المشقة؟ لقد تعودوا على المشقة، لقد عانى أجدادهم، وهم يعانون وسوف يعاني أطفالهم.

والآن، لمَ لا يُغَنِّي أي أحد في المكان. ليس بسبب الخوف، ولا العناء، ولا بسبب حظهم السيئ، ولكن لأن شعور الذنب يقمعهم ولأن الندم يعذبهم. لقد ذكرت سابقًا أن هذا الشعب يغني في كل مكان وطوال الوقت. هذا هو الوضع. يغنون وسط العناء، يغنون وهم خائفون، يغنون بعد الهزيمة، يغنون عندما يكونون جوعى وعطشى، يغنون عندما يرتدون الأسمال، يغنون وهم وحيدون، يغنون حتى وهم محكوم عليهم بالإعدام. فقط من كان ضميره غير صافٍ لا يغني.

بإخبارنا بمغامرة ديفيد، كان أهل البلد يعبرون عن امتنانهم لمعالجتنا العديد من الأمراض، وبذلك يكونون قد قاموا بتضحية كبيرة وخاطروا بأنفسهم، لأن لديهم أمرًا سريًا من الأمير يمنع أي أحد من أن يقول كلمة عن ديفيد. كان الأمير خائفًا بشكل متوقع من أن ننقل الأخبار حينما نغادر.

طالما أثبت الأمير أنه جبان جدًا لأنه لم يجرؤ على الاعتناء بالبلد وبِمَن عهد بهم الله إليه، فالشخص الوحيد المتبقي ليساعد ويُعَزِّي الناس وفقًا لطبائع الأمور كان القس. ولكن قس البلد كان يسير على نهج سيد البلد. يقولون "إن الأكل يكشف الرجل". وفي العديد من المرات عندما كنا نأكل في منزل الأمير رأينا كيف ينغمس القس في الطعام والشراب، وكأنها وجبته الأخيرة التي يخشى أن يفقد منها شيئًا. حسنًا، مَن يمكنه الاعتماد على هذا الرجل؟

حاولت أنا وأنطونيو لمرات عديدة أن نشرح لأهل البلد أنه من المستحيل أن يمتلك ديفيد أي نوع من القوى الشيطانية، وأن القصة كلها مخترعة لتخويفهم، وبالنسبة لـ"الشيطان" الذي رآه الرعاة بأعينهم، شرحنا أنه إنسان مثلنا جميعًا، وأن هناك رجالاً سودًا يعيشون في أنحاء كثيرة من العالم، ولكننا فشلنا في إقناع أي أحد.

ما الذي يمكن أن نفعله أنا وأنطونيو في مثل هذه الظروف؟

في العموم، عندما أكون في بلد أجنبي، أحاول دومًا وبقدر الإمكان ألا أتدخل كثيرًا في شئون أهل البلد، لأنني كنت أعرف عن تجربة أن تدخل الأجنبي يمكن أن يفيد مرة واحدة وسط مائة مرة، وفي المرات التسع والتسعين الأخرى سيجلب الأذى من دون شك. سبب هذا هو أن كل البلاد لديها قوانينها وأعرافها وميولها الروحية، وعندما يشهد الرجل الظلم في بلد أجنبي ويشعر بالسخط والرغبة في التأكيد على الحقيقة، فهو الآن يدافع عن حقيقته، الحقيقة التي جلبها من بلده التي يمكن أن تكون غير مفهومة وغير مقبولة هنا في بلد أجنبي.

ولكني فشلت تمامًا في أن أجعل أنطونيو يقتنع بالمنطق، ومع مرور الوقت تَذَمَّر أكثر فأكثر وأصبح قلقًا بشكل متزايد وفي بعض الأوقات، والغضب يسيطر عليه، كان يمكن أن يُلقِي بنفسه كحيوان بري مأسور.

"أنا أستمع إليك بحرص يا بارتولوميو"، قال لي عندما حاولت أن أهدئه وأمنعه من القيام بشيء لن يجلب الخير "أنا أستمع إليك بحرص، وكل شيء عقلاني وصافي الذهن وقاسي القلب فيَّ مستعد لتصديق الحقيقة التي تقولها، ولكن هذا الجزء من كياني الذي لا يذعن لعقلي والذي ينظر للحجج من أعماق مختلفة يقول لي إنك لست على حق. إن الحقيقة الإلهية ليست معتمدة على القوانين والأعراف، وأنا مقتنع بأن هذا التدخل ضروري في الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه عن طريق قوة التدبير الإلهي، حتى وإن جلب هذا الأذى، فعدم التدخل سيكون عملاً سيئًا وخطيئة. هل تتوقع مني أن أُسَلِّم أنك في بلد أو آخر ترى حقيقة راضية بقبول صفقة مع قاطع طريق، قاتل، خاطف أطفال، وأن تطيعها بجبن؟ لا يا بارتولوميو، لم يَخلِق الله الإنسان لذلك".

"الله بعيد جدًا. الحقيقة الإنسانية تحمل دومًا أثر الزمن. وبلدان مختلفة لديها حقائق مختلفة. البلد نفسه يكون لديه حقائق مختلفة في أوقات مختلفة. عندما تكون الدولة قوية وطاغية تعرف حقيقة واحدة، وعندما تضعف تختار أخرى. كل الناس يعرفون أن عَقْد صفقة مع قُطّاع الطرق هو أمر خاطئ وخطيئة، ولكن هذا هو تدبير الله، أمر القدر، أجبر الزمن هؤلاء الناس على اختيار الطاعة والتحمل باعتبارهما حقيقتهم".

"ليس الزمن يا بارتولوميو، إنما هذا الأرنب الجبان، الأمير هو الذي أجبرهم، لو كان في مكانه شخص مثل الأمير الشاب الحاكم، لشككت في أنهم كانوا سيُفَضِّلون التَحَمُّل ساعتها!".

"الأمير هو صنيعة الزمن. كم عدد الناس الذين تعتقد أنهم موجودون في حاشية الأمير الحاكم يجرؤون على معرفة الحقيقة الصحيحة؟".

"القليل، القليل جدًا، ولكن يظل المرء لا يتحمل كل شيء".

"إن لم نستطع تحمله، ما الذي يمكن أن نفعله أنا وأنت الأجنبيان؟ دعنا نقول إننا سنذهب إلى المدينة ونقول كل شيء للأمير الحاكم، ما الذي سيحدث؟ من الذي بإمكانه أن يؤكد لنا أن الأمير الحاكم، المحاط بالنبلاء غير الأوفياء، سيمكنه التصرف بهدوء وسرية بحيث لا يعرف ديفيد أي شيء مقدمًا وينفذ تهديده المرعب؟ هل يمكنك حقًا الاعتماد على أن الأمير الحاكم بإمكانه فعل ذلك؟".

"لا، لا أستطيع الاعتماد على ذلك"، قال أنطونيو هذا بنبرة صوت حزينة.

"حسنًا، ما الذي يمكننا فعله؟".

"هناك طريقة واحدة يا بارتولوميو، ديفيد ليس موجودًا هنا الآن، ولا أحد يعرف متى سيظهر".

"من الممكن أن يظهر غدًا، ومن الممكن ألا يظهر لعدة أشهر".

"دعنا نأمل ألا يظهر غدًا".

"وما الذي سيحدث؟".

خطا أنطونيو هنا وهناك في الحجرة بخطوات سريعة. كان جسده كله مشدودًا. سار هكذا لبعض الوقت في صمت، وفي النهاية توقف، وقف أمامي ونظر إلى عينيَّ.

"علينا أن نقنع الأمير بالموافقة".

"الأمير؟ ما الذي سنقنعه بالموافقة عليه؟".

"على القتال، إن أقنعنا الأمير بالموافقة، سيخرج الناس. سنجمع كل الناس القادرين على استخدام السلاح بهدوء وسرية، وعندما يظهر ديفيد، سنهاجمه في قلعته".

شعرت بكل كياني أن تلك خطة بلا معنى، ولن تؤدي إلى شيء مفيد لأي شخص، لا للناس ولا لنا.

قلت له: "أنت تعرف جيدًا يا أنطونيو، أن الأمير أَمَر أهل البلد بألا يخبروننا عن ديفيد، لقد خالفوا أمره ووثقوا سرًا فينا، هذا الذي كان أمرًا خطيرًا جدًا ليفعلونه، وفي رأيي هذه علامة على أن لا ديفيد ولا سيدهم كانا قادرين على سرقة هؤلاء الناس أمام أعينهم، ولكن بالتأكيد يحتاج السر إلى أن يبقى محفوظًا! إن أقنعنا الأمير بالفعل بالموافقة، بالتالي يمكن تبرير خطتك، ولكن إن لم نفعل – وأنا أؤكد لك أنك لن تستطيع إقناع شخص مثله بالموافقة على أي شيء خطر – ستكون النتيجة الوحيدة لخطتك هي كشف الناس الذين وثقوا فينا وتعريضهم لخطر بسبب خيانتهم، ولن أقول شيئًا أكثر عن الخطر العظيم الذي سنتعرض له، لأنه في الوقت الذي سيكتشف فيه الأمير أننا نعرف بأمر ديفيد، سيفعل أي شيء ليمنعنا من الخروج من هنا حيين".

لم يرفع عينيه من عليَّ لفترة. ثم استدار بهدوء، وتوجه إلى النافذة وسألني بنبرة صوت هادئة وساكنة ومراعية بشكل ما:

"هل أنت خائف يا بارتولوميو؟".

أقسم باسم مخلصنا أنني لم أكن خائفًا.

أجبت: "لا يا أنطونيو، أنا لست خائفًا من الموت. أنا أخشى فقط أن يزيد تهورنا من ابتلاء هؤلاء الناس".

وخفت أيضًا أن يرتكب أنطونيو خطأ ربما لا يمكن علاجه، يمكنني أن أرى كم يعاني كثيرًا من الشر الذي يُحَلِّق في المكان، ولاحظت أيضًا أن الندم، الذي جعل أهل البلد ينسون الغناء، يُذَكِّره بماضيه، ويحيي ندمه الشخصي.

وأنا بدوري لم أكن قاسي القلب. قَدَر هؤلاء الناس جعلني أعاني أيضًا، ولكني كنت أفكر أيضًا في البلد الذي أرسلني إلى هنا. في النهاية، وصلت لخطة كان من المفترض أن تهدئ أنطونيو،

وكانت في رأيي الطريقة الصحيحة الوحيدة في العموم.

قلت له على الفور عندما تدبرت خطتي بعناية: "أنطونيو، إن أسرعنا في عملنا هنا، يمكن أن ننهيه في أسبوع. دعنا نعد إلى المدينة في ظرف أسبوع ونقول كل شيء للأب سباستيان بدلاً من الأمير الحاكم. أعرف أنك لا تحب قائد بعثتنا، ولا ألومك على ذلك، ولكن لا يمكنك أن تنكر أنه ذكي وعاقل ويخاف الله! إلى جانب ذلك، هو لديه سلطات أوسع مني ومنك. سنقول له كل شيء بالتفصيل ونجعله يقرر الأفضل".

احتفى أنطونيو بنصيحتي وقررنا أن هذا هو ما سنفعله.

في اليوم التالي انطلقنا مجددًا إلى الجبال لنقتنع في النهاية أن مناجم النحاس التي أخبرونا أنها موجودة بكثرة في البلد كانت محدودة جدًا ولا تغطي تكلفة الإنفاق عليها. من جهة أخرى، حصلت على نماذج عديدة من جلودهم. إلى جانب هذا، كان الأمير سعيدًا بوضوح عندما عرف أخبار مغادرتنا الوشيكة، ووعد أنه سيرسل لنا على الفور عسل شهر مايو عندما يجمعونه. مرت إلى الآن أربعة أيام، وكان كل شيء يسير حسب الخطة. وظلت هناك مسائل صغيرة أمامنا لنقوم بها، وكان يسهل القيام بها في ظرف ثلاثة أيام.

ولكن كما يقول الجورجيون: "الإنسان يريد والله يفعل ما يريد".

كنا قد بدأنا استعداداتنا للمغادرة بالفعل عندما انتشرت في إحدى الأمسيات أخبار عن أن عصابة ديفيد اشتبكت مع وحدة للأمير وهُزموا واتُخِذوا أسرى، وأن ديفيد نفسه قُتِل في المعركة.

انتشرت تلك الأخبار غير المتوقعة في الوادي كله بسرعة البرق. نشر الناس الأخبار لبعضهم همسًا ورسموا علامة الصليب وهم ممتلئون بالأمل.

أرسل الأمير رجلاً لي ولأنطونيو يدعونا فيه على العشاء، وهو بنفسه قال لنا مبتهجًا ما كان ممنوعًا على أي شخص أن يُصَرِّح به.

سيكون صحيحًا جدًا أن نقول إنه حكى لنا نسخته من القصة، والتي تصرَّف فيها كبطل شجاع، سيد رحوم وقريب حليم. لم يقل كلمة عن اختطاف رجال ديفيد له في فناء منزله؛ ولم تتسلل كلمة منه عن تحالفهما المشين. يبدو مما قاله إن ديفيد نفسه زاره وركع على ركبتيه وقال له: "لقد قتلت رجلاً من دون قصد، وهم يطاردونني وليس لديَّ مكان لأذهب إليه". تَوسَّل يائسًا: "أعرف أنك طيب وعظيم، لا ترسلني إلى اللعنة، لا تتركني أجول في الغابات بالمضايق، أظهر الرحمة ودعني أختبئ في (قلعة الشيطان) لوقت قصير". زوده الأمير بالملجأ، ما الذي كان بإمكانه فعله؟ هو قريب، ومن لحم ودم زوجته الحبيبة. كيف بإمكانه أن يعرف أن شروره تخدعه بشدة، وأنه في الحقيقة قاطع طريق وقام بسرقات مسلحة؟ لو كان عرف هذا، لتجاهل الدم والنسب تمامًا، وقَسَّى قلبه، على الرغم من أن تلك ستكون خطيئة بشعة، كان سيقطع رأس الثعبان بيديه. كيف يمكنه أن يُظهِر الرحمة لقريب – حتى لو كان له أخ – يخطف الأطفال ويدمر البلد؟ عندما عرف الحقيقة – ولم يعرفها سوى الشهر الماضي – قرر أنه عليه أن يقتل ديفيد بيديه في الوقت الذي يعود فيه. ولكنه لم يكشف عن نيته لأي شخص. الحذر أمر طيب: بافتراض أن هذا الشرير عرف، لم يكن

ليُظهِر وجهه مجددًا.

تفاخر الأمير أكثر، كما يفعل الجبناء عادة عندما تجعلهم تصاريف القدر بشكل متوقع سادة الظروف. في النهاية أنهى ما لديه من ثرثرة وقال لنا:

"اشكرا الرب، لقد تَحَقَّقت العدالة من دون تدخل مني، ولم أُلَطِّخ يديَّ النظيفتين بدماء قريب لي. ولكن علينا من جانبنا أن نفكر في شيء. أنتم بالتأكيد تعرفون أن الناس خبثاء ويتكلمون بالشر، وبإمكانهم أن ينشروا شائعات عني: وذلك أنني كنت أعرف لصًا مسلحًا، ولكني حميته لأنه قريبي. لهذا السبب، سيلعنه القس جهرًا غدًا في الكنيسة".

اندهش أنطونيو وقال: "الرجل الميت؟".

سأل الأمير: "ما الذي يعنيه هذا؟ هل كان من الأفضل أن نلعنه أولاً ثم نقتله؟ إن الطريقة الحالية لن تؤدي للأذى أيضًا. بالتأكيد كل الناس عليهم أن يفهموا: عندما يصل الأمر للدفاع عن الحقيقة، لا يعني النَسَب شيئًا بالنسبة لي!".

تفاخُر الأمير المُرَوِّع أفسد مزاجي ومزاج أنطونيو، وذهبنا إلى المنزل بعد العشاء بقلوب مثقلة.

لم يتكلم أحد منا طوال الطريق، لا يمكنني الحديث عن أنطونيو، ولكنني شعرت بأن هناك ديدانًا تزحف على كل جسدي.

كان بإمكاننا أن نسمع غناء الليل بالقرية. منخفض وهادئ وكأنه متردد وحزين، ولكنه غناء على كل حال، تسلل إلى صمت الليل، كالماء الذي يواجهه سد ثم يجد شقًا وينزل إلى أسفل.

صَدَح رنين الأجراس في الصباح، واندفعت القرى نحو الكنيسة.

من البداية خصص الأمير مكانين في الكنيسة بجانب عائلته لي ولأنطونيو كضيفين مُكَرَّمين. ودخلنا معًا إلى جانبه. وقف أطفاله في مواجهة الأمير وزوجته، وكل منهما يمسك بيد واحدًا من ابنيهما، يمسك الزوج بيد الفتاة والزوجة بيد الصبي. وقفت أنا وأنطونيو إلى جانبهما وإن كنا خلفهما بخطوة. كانت الكنيسة مكتظة بالناس ورائحة العرق والقذارة منتشرة في الهواء. تلك الكنيسة الصغيرة الوحيدة كانت تخدم كل المنطقة، ويمكن أن نقول إنها كانت تكفي لأن الناس على كل حال لم يكونوا يهتمون كثيرًا بالشعائر الدينية. ولكن عندما سمعوا أن القس سيلعن ديفيد، اندفع أهل الوادي كله، الصغير منهم والكبير إلى الكنيسة في هذا اليوم. لم يكن هناك مكان للجميع بالداخل، وكان هناك العديد من الناس يقفون في الفناء حتى إنك لا تستطيع إلقاء إبرة هناك، وعلى الرغم من وجود مساحة كبيرة من حولنا لم يجرؤ الناس على الاندفاع إلى جانب سيدهم.

بدا أن القس الذي جلس إلى جانبنا على مائدة الأمير في الليلة السابقة والذي صار فيها ثملاً جدًا في الحقيقة، شرب جرعات كثيرة في هذا الصباح ليوقظ نفسه. كانت عيناه وخداه منتفخين، خداه منتفخان ووورديان في كل الأحوال، ولكنهما تحولا إلى الاحمرار الآن. هذا الرجل إلى جانب أنه يهتم بمتعته فهو أيضًا جاهل. كان علينا أنا وأنطونيو أن نلتقي به – غالبًا في بيت الأمير – وكنت مقتنعًا أنه لم يقرأ حتى الكتاب المقدس إلى نهايته، وإن فعل، فلم يستفد منه على الإطلاق. هناك

أمثلة عديدة في البلاد لا يحصل فيها القس المناسب على الوظيفة، ولكن بالأحرى الرجل الذي يقدم للأسقف الرشوة الأكبر من الآخرين. وهذا المثل ينطبق على قسنا هذا. لقد دفع مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت ليحصل على وظيفة القس، وهو يحاول الآن أن يستعيد مصاريفه ويستفيد بقدر الإمكان. من المفاجئ أن النور في أرواح أهل البلد الموضوع في يدي مثل هذا القس لم ينطفئ تمامًا، وصوت الضمير لم يختنق إلى الأبد. أعتقد أنه لم يكن يحفظ شيئًا عن ظهر قلب سوى الصلاة الربية، كان يتمتم بشكل غير مفهوم أثناء الخدمة والقداس، وكان يلهث ويتعثر باستمرار. ظل الأمر كذلك حتى انتقل إلى موضوع ديفيد، تغير بشكل غير متوقع، هذا الذي جعلنا جميعًا نندهش. صار صوته قويًا، ونبرته واضحة وواثقة، بدأ بالحديث بشكل مرتب، بانطلاق وبتنظيم، وكأن مبشرًا كبيرًا يقف أمامنا. شعر الناس أيضًا بهذا التغير المفاجئ، هم الذين كانوا صاخبين حتى ذلك الوقت، صاروا صامتين تمامًا. حل الصمت خارج الفناء. وهؤلاء الذين تقدموا عن الآخرين وقفوا في المدخل ليستمعوا إليه بشكل أفضل.

تحدث القس في النهاية عن أفعال ديفيد الشريرة، تقريبًا كان كلامه تكرارًا مختصرًا وأكثر غموضًا مما قاله لنا الأمير، وشكر الله أن قاطع الطريق، هذا الثعبان وهذا الشيطان، قد رحل. ثم رفع الصليب، ورفع صوته أكثر وقال بنبرة قوية:

"ملعون البطن الذي حمل ديفيد! ملعون الخبز الذي أكل منه ديفيد! ملعون البيت الذي سكن فيه ديفيد! باسم سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح، ملعون هو من الآن وإلى الأبد..".

لاحقًا، عندما اقترب هذا اليوم المدهش من نهايته، حاولت أن أستدعي ترتيب كل شيء حتى أرى في ذهني ما رأيته بقلبي فقط في الصباح، ولكن لم أصل إلى شيء من محاولتي، حاول عقلي بلا جدوى أن يرتب وينير تجربتي الحية، ولكن انطباعي في هذا الصباح ظل حدسيًا إلى الأبد. هذا الانطباع كان عبارة عن أحداث غير متوقعة وظواهر متشابكة تمت في الوقت نفسه. ونحن في صمت كامل، عندما كان كل الناس من حولي يحبسون أنفاسهم في ترقب ويستمعون باهتمام وبحرص إلى تصريح القس الغافل، صدر فجأة صوت من الفناء. لم نستمع إلى فكرة ولا كلمة، وإنما إلى صوت غير واضح، صوت يُعَبِّر عن الخوف والدهشة واليأس، وكأن الناس المجتمعين في الفناء يشهدون نوعًا من المعجزة المخيفة، وتصاعد الأنين التلقائي بشكل مفاجئ، مشتبكًا بخيوط ثقيلة وقاسية من الألم والمرارة التي جاءت لتنكسر مثل البرق أمام الباب المفتوح للكنيسة. فشل القس في اللحظة نفسها في استكمال خطابه. ظل فمه مفتوحًا وملتويًا قليلاً كأنه يتثاءب. لم يتغير لونه، وهذا لم يكن مدهشًا بقدر ما كان مقرفًا، لأنه كان ثملاً، اختلط خوفه من الموت بوجهه الأحمر الساطع، الذي كان عليه تعبير وكأن أبواب الجحيم صارت مفتوحة فجأة أمامه. اتسعت حدقتا عينيه (اليمنى أكثر من اليسرى لسبب ما)، بدأت اليد التي رفعت الصليب عاليًا في الارتعاش كثيرًا حتى كأننا نرى عدة أيدٍ وعدة صلبان. ظل أنين الناس يضج في الكنيسة، وعند خفوته صار من الممكن الاستماع لصوت آخر تحول إلى صوت واضح بعد ثانية واحدة، عندما وصل الأنين إلى الحوائط وتفتت. الآن، في الصمت التام، فقط صوت مسموع غريب وغير مفهوم كان يذكرني بشيء أو بآخر، ولكني لم أستطع معرفة ما هو، وإن شعرت بأن ما ذَكَّرني به لا علاقة له بالكنيسة.

كل هذا – مجموع الأنين، والغيبوبة غير المتوقعة للقس، والصوت غير المفهوم الذي أمكننا سماعه في الكنيسة كأنه تجديف غير مميز (ويبدو أن هذا بالضبط ما فشلت في إدراكه) كل هذا حدث بسرعة البرق، وفي غمضة عين، قبل أن يكون لديَّ وقت لأدير رأسي، تلاشى الصوت وحل الصمت المميت مجددًا على المكان. عندما أدرت رأسي تلاشى الصمت مجددًا. كان هناك شيء يهسُّ في الهواء. فكرت أن هناك ثعبانًا ينطلق فوق رؤوس الناس تحت القبة، ينطلق مسرعًا ملتويًا ومستمرًا في هسيسه وهو في طريقه إلى المذبح. في البداية، اعتقدت فعلاً أنه ثعبان، ولكن عندما نزل الحبل على رأس القس، أدركت سريعًا أنه حبل مشنقة. في وسط الكنيسة، حَمَلَت نهاية حبل المشنقة اليد اليمنى لرجل يشبه شكل الفارس في المنمنمات الفارسية. ببراعة يائسة نابعة من انعدام الأمل، استطاع القس فحسب أن يضع يديه – واحدة منهما ما زالت تحمل الصليب – بين رقبته وربطة المشنقة التي ألقيت على رأسه. وبعدما نجح في هذا أمسك بالربطة وسحبها بكل قوته ليحمي رقبته. كان وجهه ما زال يسطع بالاحمرار.

للحظة فشلت في إدراك أن الفارس الذي يمسك بنهاية الربطة كان ديفيد. ليس بسبب أن الوادي كله اعتبره ميتًا، ومنهم أنا وأنطونيو. هذا لم يضايقني. هناك شيء آخر ضايقني. عرفت هذا الرجل عن طريق ما أخبرني به الآخرون، ولكن مثلما أدركت الآن، فحكاياتهم لم تكن كافية لمخيلتي، التي خلقت مظهرًا خارجيًا مبنيًا على قصصهم. ما ضايقني بشكل خاص هو أن ما رأيته بعينيَّ لا يناسب ما خلقته من دون قصد عن طريق المخيلة. كنت أعرف أنه لا بد أن يكون وسيمًا، لأنني سمعت العديد من المرات أنه يشبه أخته، ولقد كنت أعتقد أن زوجة أميرنا هي واحدة من أجمل النساء اللاتي رأيتهن، ولكني تخيلت جماله بشكل آخر. افترضت أنه سيكون جمالاً قاسيًا وشديدًا وشريرًا، يحمل علامة الدنس لا الجاذبية. ولكني في الواقع رأيت شيئًا مختلفًا كلية.

تَحَرَّك الناس المذهولون والمندهشون في الاتجاهين، التصقوا أكثر بالجدران، وفي المنتصف، كان هناك طريق لديفيد ليمضي في الكنيسة كلها بداية من الباب.

كان للحصان رأس صغير وصدر واسع وقدمان متقاربتان طويلتان، وكان أبيض كالثلج، أبيض جدًا، لا تجد أي أثر لأي لون آخر فيه. كان ديفيد يرتدي سترة قوقازية مشتبكة بحزام ومفتوحة عند الصدر. كان رفيعًا ونحيل الوسط وعريض المنكبين. كان لديه وجه طويل مستقيم أسمر، وملامح جميلة منحوتة، ولحية شقراء قصيرة وشعثاء إلى حد ما، وأنف معقوف قليلاً، وحاجبان عاليان وجبين واسع تتناثر خصلاته الذهبية عليه. وفي عينيه الزرقاوين خليط عجيب من الخبث المنتصر والغرور الساخر، والاحتقار التام واللا مبالي، والبساطة والفضول الجامح، والحيوية، شيء أشبه بالبهجة الطفولية، كان منظرًا مدهشًا، مثلما تنظر طويلاً وبتركيز إلى بساط متعدد الألوان، ترى فيه لونًا يبرز ثم لون آخر،، بينما الأشكال الباقية تظل في الخلفية، كذلك عندما ترى هذا الوجه، يمكنك أن ترى الغرور، والآن الازدراء، والآن الاهتياج الخفيف، والآن الفضول الساذج، والآن البهجة الطفولية، ومثلما هو الحال مع بساط متعدد الألوان يعتمد الأمر على تحديقتك في التركيز على لون بعينه، بشكل مشابه وكأن الأمر معتمد على مكان الناظر وكيف يرى التعبير على وجه ديفيد، طالما أنه ساكن كتمثال، لا عَصَب فيه ينتفض، ولا عضلة تتقلص. جلس على حصانه مستقيمًا كرمح، جسده كله مائل إلى الوراء قليلاً، وإلى أحد الجانبين قليلاً. يمسك بنهاية الحبل في يده اليمنى؛

الحبل الذي ربط مشنقته حول رقبة القس، وفي يده اليسرى كان يمسك بالسِرْج وبالسوط المضموم. كان هناك كلبا حراسة ضخمان قاسيان يجلسان على فخذيهما بسكون عند كل من جانبي الحصان.

لم يكن بالإمكان الاستماع إلى أي صوت، كل الناس من حولنا صامتين وساكنين، وكأن الكنيسة لم تكن من هذا العالم، وإنما من عالم ينتمي إلى مملكة الموتى، وبدلاً من الأموات، أَلَقَت الأرواح غير المرئية بأجسادها واجتمعت، وسيطرت بالصمت الأبدي.

وفي النهاية اخترق ديفيد الصمت البشع.

قال بصوت خفيض وناعم: "استمر أيها الأب، إن كان اللجام يضايقك فسوف أرخيه قليل". بتلك الكلمات أرخى شَدَّة الحبل قليلاً. "أريد أن أسمع كيف ستلعن ديفيد".

كان يتحدث بنبرة صوت تجعل من الصعب أن تعرف إن كان ساخرًا أو إن كان مهتمًا بالفعل بالاستماع إلى لعنه.

ولكن الخوف كان يسيطر على كل مشاعر القس لدرجة أنه بدا أنه لم يستمع إلى ما قاله ديفيد.

ثم استدار أنطونيو، شعرت بأنه استدار، ولكني رأيت ذلك بعينيَّ عندما كان يتوجه ببطء وهدوء وخطوات واثقة نحو حبل المشنقة الممتد بين ديفيد والقس. كان يسير كما اعتاد أن يسير على ظهر السفينة ليرى غروب الشمس، أو عندما كان يلعب مع كلب الحراسة في فناء بيت مضيفتنا الذي صادقه من أول مرة التقيا فيها، بسحر لم أدرك كنهه.

لم يتحرك ديفيد، نظر إليه فحسب، وأخفى الفضول الآن كل تعبيرات عينيه ووجهه.

أنا لم أكن أعرف ما الذي سيفعله أنطونيو، ولكن بغض النظر عما سيفعله، لم يكن باستطاعتي إيقافه.

وأخذ يقترب من الحبل.

لم يتخلَّ ديفيد عن تحديقته المتفحصة. مع ابتسامة تكاد لا تكون ملحوظة على شفتيه.

أمسك أنطونيو بالحبل بيده اليسرى وسحبه نحوه، وفي اللحظة نفسها سحب خنجرًا بيده اليمنى ووضعه على الحبل الملقى على الأرض ومرره عليه كأنه يشحذ عصا. تراخى طرف الحبل الذي كان يمسكه ديفيد إلى جانب صدر الحصان، أما الطرف الآخر الذي كان حول رقبة القس فانقطعت ووقعت على الأرض.

عَقَد ديفيد حاجبيه قليلاً وعَبَرَت المفاجأة بوجهه كالريح. ولكن غادرته الدهشة على الفور وابتسم. استمر حاجباه معقودين، وعندما ابتسم أصبح من الصعب أن تفسر ما الذي تعنيه تلك الابتسامة الساخطة؟ هل كانت تسخر من أنطونيو أم وجدت شيئًا مسليًا وطريفًا في سلوكه؟ ثم أرخى حاجبيه وصارت ابتسامته مبتهجة على الفور، نقية وواضحة. لم أتصور مثل تلك الابتسامة على وجه رجل شرير. أذكر أنني كنت أتساءل بيني وبين نفسي عن سبب هذا التناقض بين طبيعة

الرجل ومظهره الخارجي. للحظة بقي كل منهما – أنطونيو وديفيد – ساكنين وينظران لبعضهما. ثم رفع ديفيد قليلاً السوط الذي كان مضمومًا في يده اليسرى. لم يفتح يده، هو فقط لوى معصمه، هذا الذي جعل قبضته ترتفع قليلاً ومعها السوط. في الوقت نفسه كان الكلبان القاسيان ذوا الرأسين الكبيرين، واللذان ينظران حتى الآن بهدوء وغطرسة لأنطونيو وينتظران شيئًا، رافعين آذانهما، متحفزين ومُعَدِّين للهجوم. عندما رأيت هذا وضعت يدي خلسة على مسدسي، الذي أحمله دومًا تحت ملابسي عندما أكون خارج البلاد. لم يكن لديَّ شك من أن رفاق ديفيد سيكونون في مكان قريب من فناء الكنيسة، ولكن لو أصبت الهدف، ربما يسيطر الناس على مشاعرهم ويساعدوننا، مدركين أنه بإمكانهم هزيمة قُطَّاع الطُرُق. في هذا الوقت لم أكن أعتقد هذا، ولكني كنت أفكر أن هذا هو أملنا الوحيد. لو لم يستطع الناس مساعدتنا، إذن فالموت التافه الخالي من المعنى ينتظرني أنا وأنطونيو.

كَشَف ديفيد حركتي وللحظة نظر إليَّ من طرف عينيه، اللتين وجدت فيهما ثقة بالذات. بمثل هذا الإيمان بنفسه وبمثل ذلك الغضب، أعترف بأن موقفي بدا لي يائسًا تمامًا، واليد التي حركتها تجاه مسدسي بدأت ترتعش قليلاً على الرغم من مجهوداتي.

حوّل ديفيد نظرته المتوهجة سريعًا وأنزل قبضته وسوطه، وعلى الفور تخلى الكلبان عن وقفتهما المتحفزة.

الآن، ينظر كل من أنطونيو وديفيد إلى بعضهما مجددًا، وقف أنطونيو وظهره إليَّ ولم أتمكن من رؤية وجهه، بينما ظهر الفضول مجددًا في عيني ديفيد.

لوقت قصير ظل الاثنان صامتين، ثم قال أنطونيو:

"بتدنيس هذه الكنيسة سيكون عليك أن تبني كنيسة أفضل، على الرغم من أن روحك لن تجد الراحة هكذا. اخرج من هنا!".

لم يحوِّل ديفيد عينيه من عليه واستمع إليه بانتباه وهو مندهش قليلاً، ثم ضحك في النهاية ونادى القس:

"أيها الأب! أعطيك يومين إن وددت أن تستعد، وبعد هذين اليومين سننطلق إلى آخالتسيخ".

أمسك القس بالحبل بقوة بيديه، وعلى الرغم من أن شيئًا لم يكن يقيده، فلم يحاول انتزاعه.

رفع أنطونيو يده اليمنى، فتحها ووضعها على جبهة حصان ديفيد، حَرَّك الحصان جبهته، ثم أنزلها قليلاً.

قال أنطونيو بصوت هادئ وواضح: "خطاياك ضباب، وروحك غرقت في هذا الضباب. ولكني أرى شعاعًا من الضوء السماوي يخترق الضباب وبمعجزة عظيمة يلمس جوهرك الأساسي. حول رقبتك تلتصق سلسلة من الذنوب الثقيلة، لقد صدم رأسك بالأرض ونتوسل لأبينا السماوي أن يغفر لك خطاياك".

استمع ديفيد الآن بانتباه، ولكنه لم يبتسم في البداية. رفع حاجبيه قليلاً، وأضاء شيئًا في وجهه سريعًا، لا يمكنني أن أحدد بثقة إن كان غضبًا أم غرورًا. في اللحظة نفسها استدار تجاه الملك الذي كان شاربه يرتجف، وقال له:

"يا سِلفي وسيدي! يمكنني أن أتصور بوضوح الاحتفال الذي ستُعده إن أردت أن تعيش لتشهد موت ديفيد، ولكني أغفر ذلك". تغلغلت في صوته لمسة من البرودة. "لِم سمحت لهذين الغريبين بالدخول من دون أن تستأذنّي؟".

تمتم الأمير بشكل مثير للرثاء:

"لم تكن هنا في هذا الوقت يا ديفيد..".

"سواء كنت موجودًا أم لا، عليك أن تُصلِح الأمر لأنك جعلتهما يدخلان من دون إذن. في صباح الغد، أحضر لي هذين الشابين لآخذهما إلى آخالتسيخ إلى جانب القس". عندما قال هذا توقف قليلاً وأضاف بابتسامة: "ارفض الأمر لو كان صعبًا عليك".

قال الأمير سريعًا رافعًا يديه الممدودتين: "لا، لا..".

"بالتالي. أنا لا أعرف لأي وقت ظل هذان الغريبان هنا، ولكن تذكر هذا: غضب ديفيد سيكون عظيمًا إن وصلت أخبار وجوده إلى خارج هذا الوادي".

في تلك اللحظة نَظَرتُ إلى زوجة الأمير. كانت تقف خافضة رأسها، شاحبة بشكل مميت، وكان وجهها مُتَغَضِّنًا جدًا بحيث بدت كعجوز متهالكة وليس امرأة عظيمة الجمال.

ضغط أنطونيو بقوة بكف يده الموضوعة على جبهة حصان ديفيد. انتفض الحصان قليلاً، ولكنه ظل في مكانه ولم يتحرك منه، تردد منتظرًا إشارة من سيده. أمسك ديفيد باللجام برفق، وكان ينظر الآن إلى أنطونيو نظرة غير مفهومة، لا تشبه الخبث ولا الغضب ولا المفاجأة ولا الفضول ولا أي من تلك المشاعر التي كانت مختلطة في عينيه في البداية. ولأنه لم يتلق إشارة من سيده، استسلم الحصان في النهاية إلى الضغط على جبهته، واتخذ خطوة حذرة أخرى إلى الخلف، ثم خطوة ثانية وتحرك ببطء. تبعته الكلاب بعد تأخر قصير. راقب الناس المشهد وهم حابسون أنفاسهم وخائفون، وصمت كثيف معلق في الهواء.

على الفور تبعته من الخلف في اللحظة التي تحرك فيها هذا الموكب العجيب إلى الخارج. خرجنا من الباب إلى الفناء، وكان من المدهش أنني لم أرَ رفاقًا لديفيد، خرج الناس بالتدريج وتجمعوا في الخارج، خرجوا بهدوء وبحرص وكأنهم يتسللون من شيء ما، وسريعًا خرج الجميع حتى القس والأمير. فقط زوجة الأمير وأطفالها لم يخرجوا، ظلوا في الكنيسة.

عندما عَبَر العتبة، نزع أنطونيو يده من على جبهة الحصان، ونظر إلى عيني ديفيد، وبصوت غريب وعجيب ومختلف بدا وسط الصمت التام كرنين أجراس بعيدة، قال له:

"أسرِع، فترة الزمن الخالية من الجدوى ستُجَرِّدَك من جسدك الأرضي، وعندما تصل روحك

المغرورة إلى أبواب الأبدية، ستنتظرك كل أفعالك هنا، وكل الخوف الذي زرعته هنا في هذا العالم سيصير خوفك، وكل الدموع التي أنزلتها في هذا العالم ستصير دموعك، وكل الألم الذي بذرته في هذا العالم سيصير ألمك، وكل الدماء الي سفكتها في هذا العالم ستنعصر من قلبك. هؤلاء الذين قتلتهم في هذا العالم سيقتلونك واحدًا فواحدًا، وهؤلاء الذين اُختطِفوا وبيعوا في هذا العالم سيختطفونك ويبيعونك واحدًا فواحدًا، وهؤلاء الذي جعلتهم يبكون في هذا العالم، سيجعلونك تبكي واحدًا واحدًا. حتى يأتي ذلك الوقت، ضع سلاسل التوبة حول عنقك، واحنِ ركبتيك أمام الخالق واطلب المغفرة".

بتلك الكلمات استدار وخرج. لم ينظر إلى ديفيد، ولبعض الوقت نظر إليه ديفيد بالتعبير غير المفهوم الأخير نفسه، وحاجباه المرتفعان برزا أكثر وصارا غير متشابكين، ثم استدار لي فجأة وقال:

"أيها الغريب! إن صار ديفيد غاضبًا، سيكون الله إلى جانب ديفيد، رفيقك شجاع". ثم استدار إلى الأمير والقس اللذين كانا يقفان أمام بعضهما بشكل يرثى له. "لقد قلت ما كان عليَّ أن أقوله إليك. ولن يكرره ديفيد".

قال ذلك ثم نَخَس الحصان بكعبه وانطلق. جلس بالطريقة نفسها التي كان يجلس بها في البداية: منتصبًا كرمح، جسده كله مائل قليلاً إلى الوراء، ومائل قليلاً على أحد الجنبين.

وركض الكلبان وراءه.

أنطونيو وديفيد

أَسرَع هذا الحادث بي وبأنطونيو إلى الابتلاء الحقيقي. صحيح أنه عندما انطلقنا إلى المنزل ظل الناس واقفين مذهولين في فناء الكنيسة وتبعوا أنطونيو خلسة بنظرات مُبتَهِجة ومُقَدِّرة، ولاحقًا عندما أَحضَرَت لنا مضيفتنا وجبتنا جَلَسَت لوقت أطول، وأظن أنها فعلت ذلك بحماس أكثر من المعتاد، ولكن انتصارنا كان عابرًا وغير حقيقي. في هذا الوقت كان الناس المبهورون بشجاعة أنطونيو ببساطة غير مهتمين، بخلاف ذلك لم يكن لديَّ شك من أن بهجتهم ستتحول سريعًا جدًا إلى الغضب والكراهية. صار القس ضحية خطبته، وقَدَره سيكون على نفس الشاكلة، سواء تَدَخَّل أنطونيو أم لم يتدخل، ولكن اللوم سيقع علينا في إرسال هذين الشابين إلى سوق آخالستيخ، لأن ديفيد طلب هذه التضحية من الأمير لأنه سمح لنا بالدخول هنا، وعندما ينتهي الابتهاج المبدئي، لن يكون هناك شك من أن الناس سيستنتجون – وسوف يساعدهم الأمير على ذلك إن لم يصلوا للاستنتاج وحدهم – أن كل شيء هو نابع من خطئنا، وأن البلاء الذي حل بهم كان بسبب حضورنا إلى هنا. بصراحة، هذا هو ما كان عليه الأمر. من جهة أخرى، كان الخطر الآن ينتظرني وينتظر أنطونيو، ليس فقط من ديفيد، ولكن أيضًا من الأمير، ومن يدري ربما يكون من الأمير أكثر من ديفيد. مثل معظم الجورجيين، كان ديفيد رجلاً يقوده قلبه، وكان مزاجه المتقلب هو الذي يحدد سلوكه وأفعاله أكثر من أي تدبر. إلى جانب ذلك، لم يكن لديه شك من أنه صاحب الكلمة العليا. وأعترف بأن الخطر متوقع منه لهذا السبب، ولكن ليس من المستبعد ألا يتذكر الحادث الأخير. ولكن الأمير لن يكون أمامه سوى أن يلقي بالغضب في قلبه. لديه أسس لذلك: أولاً، كل تفاخره المبدئي الذي تمتع به انتهى تمامًا بعد ما حدث في الكنيسة، وأدرك أنه صار شخصًا مضحكًا ومثيرًا للرثاء في عينيَّ أنا وأنطونيو. حسنًا، كيف يمكنه أن يغفر لنا هذا! ثانيًا: طالما كان واضحًا له الآن أنني وأنطونيو نعرف كل شيء يجب أن نعرفه عن الأفعال غير القانونية التي تحدث في الوادي، فأن يدعنا نرحل من المكان سيكون خطرًا عليه. إن نشرنا الأخبار، إما سيعاقبه الحاكم أو سيعاقبه ديفيد وهو الأسوأ. وثالثًا: التخلص منا سيكون أسهل من تخليص نفسه من ديفيد، وحتى إن لم يكن هناك سبب آخر، فهذا السبب وحده كافٍ لمثل هذا الجبان الذي يسعى للانتقام.

لم أناقش خوفي مع أنطونيو، كان مهتاجًا اليوم كله، في بعض الأحيان كان يخطو هنا وهناك وهو غاضب، وفي بعض الأحيان يصير ساكنًا تمامًا، مُوَجِّهًا تحديقته إلى الداخل ويصير تائهًا في فكره حتى تعتقد أنه لم يعد من هذا العالم، فكرت أنه عليَّ أن أدعه يهدأ، ثم يمكننا التقرير ما الذي يمكن أن نكون قادرين على فعله. ولكن عندما قَدِم خادم الأمير هذا المساء ودعانا من خارج البوابة: "يطلب الأمير أن يعرف متى قرر الضيوف المغادرة"، أجبت من دون تردد:

"أنا آسف لذلك، ولكننا لم نكن قادرين على مشاهدة كل شيء أردنا مشاهدته عند مجيئنا.

بالتالي، فإن لم يكن وجودنا يضايق الأمير، ربما سيسمح لنا أن نبقى هناك لأسبوعين أو ثلاثة".

وعدني الخادم أنه سينقل طلبنا للأمير من دون تأخير، ثم رحل.

جلس أنطونيو على كرسي صغير تحت الشجرة، مدفونًا وسط أفكاره، ولم يتدخل في حواري مع الخادم. ولكن عندما اختفى الخادم، رفع رأسه وقال بصوت حزين:

"بارتولوميو! صدقني، أنا نفسي نادم على سلوكي. مشاعري سيطرت عليَّ، ولم أستطع حَسْب الأمور بدقة. ليس لكون الأمر قد احتاج إلى حكمة كبيرة لأعرف أنني لا أستطيع مساعدة القس بتدخلي، وإنما فقط لتعريضه لخطر جديد، ولكن الأهم أنني عرضتك أنت لخطر أيضًا".

"لا تضطرب من أجل أشياء ليس من المفترض أن تزعجك، لقد قمت بواجبك المسيحي. إن لم تتدخل، كنت سأتدخل أنا".

"لن أشعر بالاضطراب إن تَعَلَّق السلوك بي وحدي، ولكن في هذا الوادي مصائرنا مشتركة. لا يمكن لنا أن نتخذ خطوة من دون أن نأخذ معنا الآخرين. إن كنت قد تدخلت، لكان تدخلك أكثر حكمة".

"من المستحيل أن تتدخل بحكمة هنا. لا يوجد نوع من التدخل كان سيجلب أي نفع، بينما كان عدم التدخل سيمثل عارًا عظيمًا لأي ابن لله. ولكن دعنا نترك هذا جانبًا. إن فاقم هذا موقفنا الخطر الحالي، إذن فالخطر الجديد سيأتي من ديفيد، ولكن في الوقت الحالي يُمَثِّل الأمير خطرًا أعظم علينا من ديفيد.

"هذا ما يبدو لي أيضًا. الأمير أكثر خطرًا. ولكن الأمير جبان، ونحن معنا وثيقة الحصانة التي وهبنا إياها الحاكم".

"هذا بالضبط ما جعلني أطلب السماح بالبقاء. ما دمنا تحت أنفه ربما نكون كريهين، ولكننا لسنا خطرين، وطالما لسنا خطرين ستقوم وثيقة الحصانة بدورها. إن كنا في طريقنا للمغادرة، خوفه من ديفيد سيتجاوز خوفه من الأمير الحاكم ولن تساعدنا الوثيقة. بعد ثلاثة أسابيع، وهو ليس وقتًا طويلاً، ولكنه مع ذلك كافٍ لنا لنفكر في شيء. لو كان من الممكن أن نهرب، لن يكون لدى الأمير رجال أوفياء كافين لمنعنا، ولكن هروبنا سيكون قطعًا لعهد الأمير، وسيظهر أن ديفيد فقط ينتظر عذرًا..".

"كل ما تحتاجه هو أن تهرب خلسة يا بارتولوميو". قال أنطونيو ذلك بشكل غير متوقع، ورَفَع يده ليوقفني وكنت على وشك مقاطعته. "أولا استمِع إليَّ، لقد أعددت خطة ستؤدي إلى نهاية سالمة لكل شيء. إن ذهبت إلى الجبال مستعينًا بمناجم النحاس كمبرر، يمكنك مع ذلك أن تهرب من هناك إلى الغابات حتى لو تبعنا الأمير، سأبدأ في الصراخ وأجعل كل الناس يعتقدون أنك سقطت في المنحدر..".

"ثم أتركك في هذا المأزق؟".

"لقد جئت تحت إمرة البلاط الملكي وعليك أن تعود إليه. ولكن أي فارق يحدث لي في أي مكان أكون فيه؟ من يدري؟ ربما هناك حاجة أكثر لي هنا".

"سواء خرجنا من هذا الوادي الملعون معا، أو بقينا فيه معًا. لا أهمية للمهمة الملقاة عليَّ من البلاط الملكي ولا القيمة التي أعطوها لحياتي كافية لتبرير تصرف جبان. ولكن إن قلت لي بإخلاص – وأنا أثق في إخلاصك تمامًا – أنك ستوافق في مكاني على هذا الاقتراح وتمضي، سأوافق وأمضي. هذه هي كلمتي الأخيرة عن الموضوع".

بقى أنطونيو صامتًا لبعض الوقت، ثم وضع يدًا على كتفي وقال من دون أن ينظر إلى وجهي:

"سامحني يا بارتولوميو".

كل منا نام نومًا سيئًا في هذه الليلة، وكلانا كان لديه فكرة متطابقة تدور في رؤوسنا: إن جلسنا كسالى من دون أن نقوم بأي مجهود، سنكون في حقيقتنا أسرى وعبيدًا لقُطَّاع الطريق مثلنا مثل الأمير.

حل الفجر الغائم في اليوم التالي. كان هناك ضباب كثيف على الجبال ونزل تدريجيًا إلى أسفل، ووصل سريعًا إلى أركان الوادي الأربعة. أنذرت السماء بالأمطار.

عندما غسلنا أيدينا ووجهينا، وقدمت لنا مضيفتنا اللبن الدافئ المعتاد والخبز الخارج لتوه من الفرن، لم أعرف إن كان الأمر كذلك حقًا أم أنه نابع من مخيلتي بسبب قلة نومي وغضبي، ولكن بدا لي وكأن توقعًا متفائلاً أو شيئًا من هذا القبيل مكتوب في عينيها.

لم يأكل أنطونيو كسرة خبز واحدة، وأجبرت نفسي على قضم القليل، وعندما رأت مضيفتنا أننا لم نأكل شيئًا، تنهدت بعمق وذهبت للتنظيف.

عندما صرنا وحيدين قال أنطونيو لي:

"بارتولوميو! بالتأكيد لن نُتَّهَم الآن بنشر المعلومات! ربما بإمكاننا أن نذهب إلى الأمير ليوافق".

أومأت برأسي. كنت أفكر في هذا بالضبط طوال الليل.

"دعنا نقوم بهذا. ولكن أليس من الأفضل أن نُجَرِّب حظنا مع القس قبل أن نذهب إلى لأمير؟ بغض النظر عما يحدث، فحياته نفسها معلقة في الميزان. ربما جعله اليأس أكثر جرأة".

أُعجَب أنطونيو بنصيحتي وسريعًا وصل كلانا إلى فناء القس. كان الوادي كله مغطى بالضباب، وكانت رائحة الرطوبة متناثرة في الهواء وفي كل مكان، وكان البلل يغطي أيدينا ووجوهنا تدريجيًا.

كان فناء القس محاطًا بسياج منخفض. ومنزل كبير مقام في الركن الشمالي وأمامه مرج صغير، وفي الأعلى، حيث ينتهي المرج، يبدأ فناء يحتوي على أشجار الكروم. كان القس يقف عند

الكروم بمجرفة في يده، وكان يجرف التربة عند جذور بعض الكروم. لم يكن يرتدي شيئًا سوى قميص، وكان هناك غطاء رأس أنثوي متعدد الألوان على رأسه. وبدا جسده الخالي من الشكل في الضباب الكثيف شديد البدانة. كانت قدماه مائلتين إلى اليمين قليلاً، ويداه مائلتين إلى اليسار قليلاً، وكان يجد صعوبة كبيرة في جمع جسده المفكك المُجَزأ الملتوي بشكل غير طبيعي مجددًا.

ناداه أنطونيو بصوت منخفض: "أيها الأب إفرام!".

ارتجف القس، ومجرفته في منتصف الهواء. وقف بهذه الطريقة للحظة، ثم رفع رأسه ببطء، وأرجعها للوراء ونظر إلى السماء. في النهاية ترك المجرفة في يده اليمنى، ورسم علامة الصليب على نفسه وأكمل عمله.

ناداه أنطونيو مجددًا: "أيها الأب إفرام!".

الآن دفع القس المجرفة في الأرض، وأحنى يديه على مقبضها، ولم يركز في الكلمات. ثم استدار سريعًا، وظلل على عينيه بيديه وسأل بصوت غير واثق:

"من هناك؟".

أجاب أنطونيو: "نحن أيها الأب إفرام".

عرفنا القس، ترك المجرفة وتوجه نحونا، استعاد جسده شكله تدريجيًا وهو يقترب منا. في النهاية، عندما أصبح قريبًا حتى مَيَّزنا وجهه، كان بإمكاننا أن نرى عليه خليط المرارة والغضب واليأس.

"يا الله، دمر سلامه وبهجته هذا الذي دمر سلامي وبهجتي". هكذا قال القس بصوت منخفض، ولكن بأمل عميق مساوٍ للكراهية العميقة. "يا الله، دمر وحطم هذا الذي دمرني وحطمني! ما الذي تريدانه؟ ما الذي جئتما من أجله؟..".

حاول أنطونيو أن يجيب: "يا أبي..".

لم يترك له القس فرصة.

أشار بإصبعه إلى أنطونيو: "ليمزقك الله من أجل تمزيقي! أنت قبل الجميع – أنت! أنت! ما الذي أردته؟ ما الذي تحمله تجاهي؟ من طلب منك أن تتدخل في شئوني؟ لِمَ دمرتني؟ كنت سأهتم بشئوني إلى الآن. إن كان ديفيد يعرف الغضب، فهو يعرف أيضًا الرحمة. كنت سأتوسل إليه، وأنحني على ركبتيَّ أمامه، وأتوسل من أجل عائلتي، وسأذرف دمعًا غزيرًا، لتقطع السكين التي قطعت به الحبل قلبك إلى نصفين! اذهب، اغرب عن وجهي! ألا ترى أنه لا وقت لديَّ للحديث إليك! عليَّ أن أنتهي مما يمكنني عمله الآن وأتمَّه قبل أن أرحل. من الذي بوسعه فعل أي شيء من دوني! من سيعتني بزوجتي المريضة وأطفالي الصغار! من سيجلب لهم الخبز إن ماتوا من الجوع! اغربا من هنا! ابعدا عني، أيها الملعونان!..".

صمت القس وكان يتأهب للمغادرة، استغل أنطونيو هذه الفرصة وقال له:

"أيها الأب إفرام! لا تخشَ شيئًا، كل شيء سيصير في خير حال".

استدار القس عندما استمع إلى ذلك. استدار فجأة وفورًا وبدأ ينظر إلى أنطونيو. عبرت وجهه موجات كثيرة من الأمل واليأس. اتسعت عيناه كما كانت تفعل سابقًا. اليمنى أكثر، واليسرى أقل. وعثر في النهاية على صوته، وقال بنبرة متقطعة:

"ما الذي سيصير في خير حال!". قال له أنطونيو بهدوء ولكن بحماس: "أنت، عائلتك، الوادي كله".

أطفأت تلك الكلمات الأخيرة لأنطونيو شعاع الأمل من على وجه القس. ظل فقط تعبير عدم الثقة مختلطًا بالازدراء. ثم، عندما تحدث، كان يمكن أن نكشف الازدراء في صوته:

"ولكن كيف؟".

"دعنا نحشد بعض الناس. سوف يتبعونك يا أبي، إن دعوتهم. سيكون من الممكن أن نجمع مائة رجل على الأقل يعرفون كيف يتعاملون مع الأسلحة..".

أثناء حديث أنطونيو، تغير وجه القس تدريجيًا حتى إنه صار في النهاية أشبه بوجهه في اليوم السابق عندما رأى ديفيد. توقف فجأة وركع على ركبتيه، مد يداه وكفاه نحونا، وكانتا تغطيان وجهه وكأنهما ستارة، وبدأ في التمتمة بسرعة لنفسه:

"يا الله! حررني من الشر، واحمني من الخبث، ولا تحطمني ولا تدمرني، احفظ عائلتي يا إلهي المحبوب! افعل ذلك بالتضحية بي!". وقف مجددًا، وخطا بالقرب من أنطونيو وبدأ بالتحديق فيه بوجه ملتوٍ – "اذهب أيها الشيطان! اذهب أيها الشرير! اذهب يا تلميذ عدو الله! – وفجأة وقف وبدأ صوته يتحول للصراخ – "اخرجا من هنا! ألا يكفيكما أنكما دمرتماني، الآن تريدان إفناء عائلتي أيضًا؟ اغربا عن هنا، وإلا سأقطع رأسيكما!". نظر إليَّ من فوق لتحت وقال هذا، ثم تذكر أنه ترك المجرفة عند الكروم، استدار وسار إلى هناك بخطوات مُحَذِّرة.

في تلك اللحظة صرَّ الباب، وظهرت امرأة في الشرفة، كانت تبدو كشبح وسط الضباب.

"من هناك يا رجل؟".

توقف القس للحظة ونظر إليها.

"إنهما الغريبان الملعونان.." – استمر يتمتم لنفسه بهذه الطريقة – "بنفسي.. سأخبره بكل شيء بنفسي قبل أن يقول له أي شخص آخر.. بنفسي..".

رفعت المرأة يديها إلى السماء.

"ليلعنكما الله، لتبتلعكما الأرض، لتبقى عائلتاكما من دون حياة، ليفني الله عائلة من أرسلكما إلى هنا لتدميرنا..".

استدرنا أنا وأنطونيو وعدنا ورأسانا في الأرض. أنهك جسمي كله وضعف حتى إنني ظننت أن دمي لم يعد يجري في عروقي. وظل صوتا القس وزوجته يرنان في أذنيَّ.

كان أنطونيو شاحبًا جدًا، فمه مغلق بإحكام ولم يقل شيئًا. عندما وصلنا إلى مفترق الطريق هَمَّ نحو البيت، ولكني أوقفته.

"دعنا نذهب إلى الأمير، طالما بدأنا، دعنا نكمل للنهاية".

نظر إليَّ أنطونيو، ثم أومأ برأسه ببطء وتبعني.

رفض الأمير رؤيتنا. أرسل إلينا برسالة عن طريق خادمه: "ليس لديَّ وقت، ولن يكون لديَّ وقت، ولا تضيعا وقتكما بزيارتي مجددًا إلا عند إخباري مقدمًا أنكما سترحلان من المدينة، لأجعل رفقة مسلحة تصطحبكما طالما أن البلد ممتلئ بقُطَّاع الطرق والطريق خطر".

عدت أنا وأنطونيو إلى المنزل خائبي الأمل وشاعرين بالمرارة. لأكن صريحًا، لم أتوقع شيئًا أفضل من محاولتنا. ومن جهة أخرى، اقتنعت في النهاية بشيء كنت حتى هذا الوقت متشككًا فيه: لن يدعنا الأمير نغادر هذا المكان حيين. "رفقته المسلحة" التي ستصطحبنا كخُرَّاس، ستقتلنا في الطريق وستنشر الأخبار بأننا قُتلنا في معركة مع قُطَّاع الطرق.

لم نكن نرى من حولنا شيئًا سوى الضباب، وكان الصمت الثقيل الخانق يُغَلِّف الوادي كله، وكأن كل الكائنات الحية قد أبيدت. لم يكن بالإمكان الاستماع لصوت طفل في أي مكان. صار كل شيء ساكنًا وصامتًا. عندما وصلنا إلى منزلنا قابلنا مضيفتنا العجوز بالصدفة عند البوابة، نظرت إلينا للحظة وبدا تساؤل آمل وتوقع لشيء ما في عينيها.

ما الذي تتوقعه تلك المرأة منا؟ أو ما الذي تتوقعه من الحياة؟ ليس لديها زوج. لقد دفنت ابنها الوحيد من عدة أشهر قبل وصولنا، ليس لديها أحد في البلد كله لتعتني به أو يعتني بها. ليس لديها شيء متبقٍ لتخسره أو تكسبه. سريعًا ستتبع خطى زوجها وابنها وسيختفي الأثر الأخير للعائلة. سيهب الأمير المنزل والفناء إلى شخص آخر، سيغرس شخص آخر الجذور، وستشتعل نار شخص آخر في المدفأة، وستنتشر حياة أخرى في المكان، والحياة القديمة لن يتبقى منها أحد ليسترجعها، ستختفي من ذاكرة كل الناس. إلا أنه بخلاف كل هذا فسلوك أنطونيو في اليوم السابق أضاء شرارة الأمل في عيني المرأة. ولكن هي نفسها لم تكن بحاجة إلى هذا الأمل، كانت سعيدة لأمل الناس الآخرين، كانت تفكر في الناس الآخرين، ومن ضمنهم – شاءت أم أبت – هؤلاء الذين سيكون عليها أن تسلم لهم حياتها وحياة أسرتها التي ستُنسى.

في الظهيرة، لم أستطع السيطرة على نفسي وقلت لأنطونيو:

"أنطونيو، لا يمكننا أن نجلس ساكنين هكذا أكثر من ذلك. علينا أن نفكر في شيء".

قال أنطونيو: "نعم"، ورفع رأسه ونظر في وجهي: "علينا أن نذهب إلى قلعة الشيطان". كان هناك إيمان هادئ في عينيه العميقتين، نُبْل لطيف، وأمل بسيط طبيعي لا تشوبه شائبة، بدا للحظة وكأن بحر النور الإلهي يشع من قلبه أمامي وجعلني أنظر إلى أعماقه المشعة. وأدركت فجأة كم أنا

محظوظ لأن هذا الرجل إلى جانبي، وأن العناية الإلهية وضعت صداقته في طريقي.

هناك منابع لا تنتهي من لأمل في الطبقات العميقة للإنسان، كالمنابع الجوفية المختبئة لأن أحدًا لا يعرف متي وأين ستندفع وتبدأ تطفو في الصحراء العطشى بسبب الجفاف.

"ما الذي تريده من قلعة الشيطان يا أنطونيو؟".

"علينا أن نُخَلِّص أنفسنا من مصيرنا ومن الأمير. لا تأتِ معي إن لم تَرِد ذلك. ليس من الضروري أن يذهب كلانا". تردد قليلاً كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة وأكمل: "ألا يتساوى عند ديفيد أي من يبيع له بضاعته؟ أعترف أنه ليس من الملائم لرجل أمين أن يقوم بصفقة مع قاطع طريق، ولكني لا أرى طريقة أخرى".

"أنت على حق يا أنطونيو. أنا وأنت لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك الآن". تبعتنا مضيفتنا التي كانت تشغل الصوف في ركن الشرفة بتحديقتها عندما امتطينا جوادينا وانطلقنا في طريقنا.

كان المساء يحل. وكانت تمطر قليلاً، وكان النسيم البارد يهب والضباب ينتشر ويحيطنا أحيانًا.

اندفعت الكلاب إلى البوابة وهي تنبح، ولكن عندما ظهر العبد الأسود بينها وسط الضباب الكثيف كأنه ظهر من الأرض، توقفت عن النباح على الفور. بالضبط كما فعل من ثلاثة أسابيع، نظر الرجل الأسود إلينا بوجه صامت مندهش.

أصبحنا قريبين جدًا (هذا الذي لم يُرِح الكلاب) وقال أنطونيو للرجل الأسود:

"نادِ ديفيد: نريد أن نُحَدِّثه".

قال هذا له، ولكننا تذكرنا تجربتنا السابقة، وبالتالي لم نأمل كثيرًا في كوننا قادرين على أن نجعله يفهم أي شيء.

استمر الرجل الأسود في النظر إلينا لفترة أطول من دون أن يُحرِّك عَصَبًا، ثم استدار فجأ واهتز جسده الجميل القوي المرن قليلاً. ومضى في أعماق الفناء.

ظلت الكلاب عند البوابة، تنظر إلينا بنظرة عدائية وآذانها منتصبة.

استمر الانتظار الكريه لبعض الوقت. وفي النهاية كان يمكننا سماع صوت خطوات الأقدام وعاود الرجل الأسود الظهور. كان يتبعه تركيين، كل منهما مسلح وأصلع الرأس. صعد التركيان إلى البوابة، نظرا إلينا من دون احترام وسألنا أحدهما بجلافة:

"من أنتما وماذا تريدان؟".

رد أنطونيو: "نريد أن نرى ديفيد".

"ما الذي تريدانه من ديفيد؟".

رفع أنطونيو صوته: "علينا أن نخبر ديفيد بأنفسنا، اذهب وقل له إن الأجنبيين يودان رؤيته!".

حَدَّق التركي في أنطونيو وكأنه يفكر إن كان عليه أن يطلق عليه الرصاص في مقتل أم لا. ولكن بعد وقت قصير استدار مع ذلك وعاد مع رفيقه. بقي الرجل الأسود وبدأ في التحديق فينا كالسابق بوجهه الساكن الصامت.

في هذا الوقت كان علينا أن ننتظر وقتًا أطول من السابق. وفي النهاية أمكننا سماع صوت خطى الأقدام مجددًا وظهر شخص ما. لا بد أن يكون تركيًا، ولكن على خلاف السابقين بدا أكبر عمرًا، لم يكن مسلحًا، وكان يرتدي طربوشًا أحمر على رأسه. نظر إلينا التركي صامتًا لبعض الوقت، ثم تحول إلى الرجل الأسود وقال:

"ابعد الكلاب!".

صعد الرجل الأسود إلى نهاية الفناء، في طريق طويلة جدًا إلى البوابة، جلس بعيدًا على العشب الرطب، وبصوت منخفض كصوت الشحرور بدأ يصدر صياحًا. تركت الكلاب البوابة على الفور، واندفعت تجاه الرجل الأسود، تجمعت وربضت حوله.

من دون أن ينبس بكلمة فتح التركي البوابة لنا، وبعدما نزلنا من الجياد قادنا إلى الأمام في صمت.

ولم تتحرك الكلاب.

لم تبد القلعة صغيرة كما بدت لنا لأول مرة. قادنا التركي خلال ممرات ضيقة ومظلمة لوقت طويل قبل أن نصل في النهاية إلى باب خشبي طويل وواسع. بالداخل، كان يمكننا الاستماع إلى أصوات غير مميزة تحولت فجأة إلى ضوضاء بعدما أشار إلينا التركي بالتوقف، ثم فتح الباب بنفسه. توقف التركي عند العتبة وأحنى رأسه كثيرًا.

وجدتني أنا وأنطونيو في قاعة طويلة وعالية السقف حوائطها وأرضيتها مغطاة بالأسبطة غالية الثمن. على الحائط الخلفي، وعلى ارتفاع رأسينا وبعيدًا عن السقف، عُلِّقَت كل أنواع الأسلحة – السيوف، الخناجر، السكاكين، البنادق، المسدسات – العديد منها حتى إن الأبسطة لا تبين من ورائها. كانت هناك نوافذ ضيقة وطويلة على الحوائط على اليمين واليسار. في منتصف الردهة كانت هناك طاولة منخفضة، ولكنها طويلة وواسعة ومتماسكة يتراكم عليها الطعام الوفير. وحول الطاولة كان يجلس عشرة أو اثنا عشر رجلاً، منهم التركيين الذين قابلناهما لتونا.

صمت الجميع للحظة عندما ظهرنا، وأداروا رؤوسوهم وبدأوا في التحديق فينا في صمت.

لم أَرَ طوال حياتي كل هذا الكم من العيون البشعة المتوحشة النهمة المتفحصة. ارتعش جسدي، وبالكاد استطعت إخفاء خوفي.

كان ديفيد يجلس على رأس الطاولة مرتديًا رداء فارسيًا، يمسك بقنينة كبيرة من النبيذ في يده، وبدا بخصلاته الذهبية، ولحيته وشاربه الأشقرين وملامحه الوسيمة، كإله وثني وسط الرفاق السُمْر المشعثين الثملين.

قال ديفيد بالتركية: "إنهما هما"، ونظر إلينا بابتسامة تحمل الخبث الخالي من الرحمة، مستمتعًا بالسخرية والفضول الساذج، وفي الوقت نفسه على وجهه تعبير كشرر الجمر. "هذا هو الذي قطع حبلي". أشار بإصبعه إلى أنطونيو، ثم استدار إلينا وقال بالجورجية: "لم يجرؤ أحد على زيارة ديفيد أيها الغريبان".

أجاب أنطونيو بهدوء: "إذن فنحن الأولان".

قاطعه ديفيد:

"الأولان والأخيران. ولكن طالما جئتما سأخبركما عما كان يضايقني". بتلك الكلمات حَدَّق في أنطونيو بعينين نصف مغلقتين، لم يكن فيهما شيء سوى السخرية. "فقط أخبرني عن شيء واحد أيها الغريب: أين هي روحي؟ لقد قضيت الليلة الماضية كلها أبحث عنها ولم أجدها في أي مكان". هنا نظر إلى رفاقه وضيوفه حول الطاولة، وقال لهم بالتركية: "انظروا، هو يعرف أين هي الروح، وإن لم يكن يغشنا ويخدعنا عليه أن يرينا إياها الآن". اندفعت موجات من الضحك من المحتفلين، هذا الذي بَيَّن أنهم ضحكوا كثيرًا بالفعل في الليلة السابقة، تحول مجددًا الآن إلى أنطونيو: "أين روحي أيها الغريب؟".

انتظر أنطونيو حتى توقف الضحك، ثم أجاب عن سؤال ديفيد بسؤال:

"هل اسمك ديفيد؟".

تراجع ديفيد من السؤال غير المتوقع حتى إن حاجبيه، اللذين رفعها كثيرًا، قفزا بشكل تلقائي. ثم بعدما تجاوز المفاجأة، قال بابتسامة:

"ألا تعرف حقًا؟".

أجاب أنطونيو: "بلى أعرف، ولكني لا أعرف أين هو اسمك. ربما يكون بإمكانك أن تريني إياه".

نظر ديفيد عن قرب إلى أنطونيو لبعض الوقت وكأنه يحاول أن يتبين شيئًا من وجهه. ثم ابتسم مجددًا.

"أعرف ما الذي تحاول أن تقوله..".

قاطعه أنطونيو: "هل تعرف؟ بالتالي ستعرف أيضًا أين هي معرفتك؟".

عبر ظل على عيني ديفيد وشفتيه اللتين كانتا مغلقتين تمامًا. وحل الصمت للحظة. جلس رفاقه المحتفلين صامتين وحاولوا أن يخمنوا من تعبيرات وجهي ديفيد وأنطونيو ما الذي يتحدثان عنه. في النهاية قال ديفيد ببطء وتدبر:

"أنا معجب بجرأتك، ولكن..".

قاطعه أنطونيو: "ولكن لا تعرف أين هي جرأتي".

بدا لي أنطونيو منفعلاً جدًا لذلك وجدت أنه من الضروري أن أتدخل.

"من الأفضل أن تقول ما يجب أن يقال وأن ننهي عملنا هنا بدلاً من الحديث بلا جدوى".

الآن نظر ديفيد إليَّ.

وقال لرجاله بالتركية: "هذا الرجل أرجح عقلاً". ثم عاد إلينا وتحول إلى الجورجية: "لماذا جئتما إلى هنا؟".

سأله أنطونيو: "كم هو سعر الرجل في سوق آخالستيخ؟".

نظر إليه ديفيد للحظة داهشًا. ثم ضحك:

"هو عمل مربح، إن أردتما سأضمكما إلى عصابتي".

أجاب أنطونيو: "لا تزعج نفسك، يمكنني أن أرى أن لديك رجالاً أفضل في عصابتك". ثم توقف فجأة. "إفرام القس والشابان اللذان سيصلانك غدًا – سنشتريهم". هنا توقف للحظة وأضاف: "لا يوجد داعٍ لترجمة هذا إلى التركية".

اعترف أنطونيو لي لاحقًا بأنه عندما قال هذا كان يعرف بالفعل أنه ارتكب خطأً، ولكنه لم يستطع التوقف.

ابتسم ديفيد ابتسامة واسعة وقال بالتركية بصوت عالٍ:

"الغريبان جاءا لشراء أسيريَّ الغد".

شاع صوت الدهشة مفتوحة الفم في الجمع، ونظر الجميع إلينا بانتباه. نظروا إلينا بعيون تشبه عيني الحيوان المفترس الذي ينظر إلى فريسة ملقاة لا مجال لها للهرب.

استعادة هدوئي كانت تتطلب أن أشد جبهتي إلى أقصى درجة.

سأله ديفيد بالتركية، وكانت نبرة صوته مستفزة قليلاً الآن: "هل أحضرتما معكما المال؟".

أجاب أنطونيو بالتركية: "لقد أحضرناه معنا". لم أعرف ما المشاعر التي كانت بداخل بقلبه، ولكنه في الظاهر كان باردًا بشكل غير مفهوم، وهادئًا بجرأة، ورباطة جأشه كانت فاتنة بحق.

صار رفاق ديفيد صاخبين مجددًا. وقف اثنان أو ثلاثة منهم على أقدامهم. وصل الخطر الآن إلى ذروته، كانت مهنة هؤلاء اللصوص المسلحين هي القتل، وفي الحقيقة، ما الذي سيخسرونه بقتلنا الآن؟ سيحتفظون ساعتها بكل من الأسرى والمال المخصص لتحريرهم.

الآن ديفيد وحده هو الذي يمكنه مساعدتنا.

انتظر ديفيد قليلاً، وعندما تبع الآخرون هذين الرجلين أو الثلاثة ووقف الجميع تقريبًا على أقدامهم، رفع يده.

صَمَت قُطَّاع الطريق وجلسوا مجددًا، وقال ديفيد:

"هذان الرجلان جاءا للتجارة وليس العراك! وهما ضيفانا أيضًا. سأطلب منكما ثلاثين قطعة ذهبية لكل أسير أيها الغريبان".

كان المال مع أنطونيو. أخرج جِراب يحتوي على مائة قطعة ذهبية، وذهب إلى ديفيد، وفتح الجراب بهدوء، وبالهدوء نفسه أخرج عشر قطع ذهبية وأعطاه الجراب.

"هنا تسعون قطعة ذهبية، بإمكانك أن تعدها".

نظر قُطَّاع الطرق إلى الجراب بنهم شديد كالحيوانات المتوحشة.

قال ديفيد: "أنا أثق بك".

"ثم سأخبر الأمير أن يهدئ شعبه الخائف".

"سأقول له ذلك بنفسي. لن يصدقك إن قلت له ذلك، وسوف يعتبرها خدعة". ابتسم بسخرية مزدرية وأكمل: "لقد عودت سِلفي على ألا يثق في أحد".

"هل ستقول للقس أم نقول له نحن؟".

"القس؟"، كرر ديفيد الكلمة وفكر. ثم عندما أكمل حديثه، نظر إلى عيني أنطونيو ولم يرفعها من عليه:

"القس رجل أحمق، وعليَّ أن أجعله يندم على حمقه. أنت ورفيقك، المتحلي بالحكمة أكثر منك، ستفضلان أن تخبرا العالم بكرمكا وسخائكما في أقرب وقت. ولكن عليَّ أن أنصحكما بأن تربطا زمام أنفسكما. دعا القس الطيب يقضي هذه الليلة في خوف وصلاة، هذا أمر نافع لروحه، إن لم تكذب عليَّ وكانت هناك روح بالفعل في مكان ما. وعندما يأتي إليَّ مستعدًا للرحلة، سأهب له حريته وأطلقه في سلام".

قال أنطونيو: "حسن، ليكن الأمر كذلك".

"ولكن تَذَكَّر، إن تركته يعرف سرنا، سيشعر ديفيد بالإهانة، وإن لم يفعل ما هو أسوأ سيعلن على الأقل أن حديثنا لم يعنِ شيئًا".

أحنى أنطونيو رأسه في صمت، واستدار وخرج. كان قُطَّاع الطرق ينظرون إلينا بغضب مكتوم وندم مرير.

صاح فينا ديفيد: "تذكرا شيئًا واحدًا أيها الغريبان، لم يدخل غريب إلى القلعة من قبل، وإن فعل فهو لا يخرج منها. عندما تصلا إلى البيت، اشكرا الله أن ديفيد كان مزاجه طيبًا الليلة. لا تأملا في دخول آخر. إن دخلتما القلعة مجددًا ستنتفح أمامكما بوابة الأبدية".

أظهر لنا الخادم الذي أدخلنا الطريق إلى الخارج.

كان العبد الأسود ما زال جالسًا في مكانه، ومحاطًا بالكلاب.

لا أعرف كيف ولا عن طريق مَن عرَّف ديفيد أميرنا أنه تم تحرير الشابين، ولكن يبدو أنه عرف ذلك في نفس اليوم، طالما أنه في هذا المساء أسرعت المضيفة العجوز وهمست: "ليهبكما الله الحياة المديدة يا ولديَّ". ثم ابتسمت لأول مرة منذ وصولنا – وإن كانت ابتسامتها بسيطة وواهنة وغير معتادة على وجهها.

في ظهيرة اليوم التالي، كان القس ينتظرنا في فنائه عندما عدت أنا وأنطونيو من القرية المجاورة، حيث كنا نعالج مريضًا مصابًا بالاستسقاء.

فاجأنا بشكل عظيم. كان يجلس على كرسي منخفض تحت شجرة وينظر مضطربًا، كان يتململ بعصبية وتختلس عيناه النظر وكأنه يخشى أن يلاحظ شخصًا ما أنه موجود. عندما رآنا وقف وتململ أكثر.

وعندما ألقينا عليه السلام، لم يجبنا ولم ينظر إلى وجهينا. ظل هادئًا لفترة، وكان ينظر إلى جهة واحدة، وكانت يداه ترتعشان. ثم قال لنا بصوت متقطع وخافت في الوقت نفسه وغاضب قليلاً أيضًا:

"عليَّ أن أنهي معكما مسألة". قال ذلك وأشار إلى المنزل.

عندما توجه إلى الداخل تزايد اندفاعه وارتجافه. وتلاشى اللون من عليه.

قال أنطونيو: "نعم يا أبي".

كنت أنظر إليه وأنا صامت ومضطرب، أفكر أنه من المؤكد أن اهتياجه لا يعني أنه تجاوز خوفه الذي يفوق حتى خوف شعبه.

هدأ هذا التشكك سريعًا. صار القس قلقًا مجددًا لبعض الوقت، وكانت عيناه تتحركان، وضع يده في جيب صدره، وأخرج كيسًا ورماه على الطاولة.

صحت أنا وأنطونيو في الوقت نفسه: "ما هذا؟".

كان القس يقف ويداه مشتبكتان لأسفل، ينظر إلى جهة واحدة، ولكن في صوته كان هناك أيضًا غضب غير مفهوم.

"إنها ثلاثون قطعة من الذهب".

صاح أنطونيو في دهشة: "هل أفسدت اتفاقنا؟".

قال القس: "لا"، ثُم صَمَت. كان يرتجف وينظر إلى أسفل نحو الأرضية. بدا لعدة مرات وكأنه موشك على قول شيء، ولكنه لم يستطع. بدا أنه يناضل بداخل نفسه. وفي النهاية تمتم قائلاً: "هذه هي الرسالة التي عليَّ أن أوصلها.. قال: لقد أخطأت تقدير الحساب، عندما تفحصته عن قرب

لاحظت أن هذه ال.."، أمسك لسانه لفترة ولم يقل شيئًا، ثم قال بعد جهد: "هذه البضاعة الفاسدة لا قيمة لها، أنا أعيد لكما مالكما.. الخاص بالقس.. سأتركه بلا مقابل.. خذاه كتذكار مني.. ولكن.. لكن.. افحصاه جيدًا لتجدا أين هي روحه".

صَمَت القس.

كان جبينه مغطى بالعرق، ووجهه شاحبًا للغاية وبدا هزيلاً ومنكمشًا.

جلست أنا وأنطونيو صامتين، ننظر إليه من دون فهم، ولا أعرف كم من الوقت كان سيمر من دون أن نكون قادرين على الحديث إن لم يقطع القس في النهاية هذا الصمت الثقيل. لم يرفع رأسه، تمتم فحسب، ولكن هذه المرة بنبرة انتقامية كريهة ومقتضبة، فبدا أن شيئًا يعيق رئتيه، وبالكاد استطاع الحديث:

"ما الذي تريدان أن تقولاه لي؟".

في البداية اندهشت، فشلت في فهم ما يسألنا عنه. ثم أدركت فجأة أنه يعتبر نفسه الآن عبدنا، ملكيتنا، فغضبت بشدة.

أجبت وأنا أخفي غضبي بقدر استطاعتي لأتحدث بهدوء: "ما الذي نريد أن نقوله لك هو أن تذهب إلى بيتك وتعتني بأسرتك".

وأضاف أنطونيو: "فقط بشرط واحد". عندما سمعت كلمة "شرط" نظرت إليه مندهشًا، ولكنه لم يهتم. "الكنيسة مغلقة ليومين حتى الآن. لم يعد من الممكن لك أن تظل قسًا بعدما ألحقه بك ديفيد أمام كل الجمع. تحدث إلى الأمير وأرسلوا رسالة إلى السلطة المختصة لتعيِّن قسًا آخر".

نظر إليَّ القس للحظة ثم تحول إلى أنطونيو، وبدلاً من العار رأيت مشاعر الكراهية واليأس في عينيه. ثم استدار من دون صوت وخرج.

لم أرَ بعينيَّ ما الذي حدث مع أول ضوء من الصباح التالي، لذلك أجبرت نفسي على الاعتماد على حكايات الآخرين في وصفي. من جهة ما فالذي حدث كان صعبًا وخطيرًا، وأعترف بأن كل واحد من الشهود والمشاركين – أنطونيو وديفيد والعبد الأسود – حكى لي بالتفصيل عما رآه بعينيه، وسمعه بأذنيه، وشعر به في قلبه، وقدموا لي إجابات دقيقة وكاملة عن كل أسئلتي بقدر استطاعتهم. ولكن مهما حاولت كان يظل من المستحيل ألا يفوتك العديد من الأشياء، وفي بعض الأحيان كانت هذه هي الأشياء الأكثر أهمية في قصة أحدهم، وإن أردت أن تصف ذلك الحدث عليك أن تجتهد في هذا المهمة الأقرب للاستحالة، طالما أن القارئ عليه أن يعتمد على حكاية مبنية على حكاية.

ولكن الشكوى غير المجدية لن تنفع الآن. وطالما بدأت عليَّ أن أضع ثقتي في الله وأحاول أن أمضي في المهمة إلى نهايتها.

بدأ كل شيء عندما استيقظت وقمت في الصباح التالي وعرفت من مضيفتي أن أنطونيو ليس

بالمنزل. كانت مضيفتنا تحلب البقرة في الحظيرة. وتَوَقَّفَت عن الحلب عندما رأتني، وخرجت ونظرت إليَّ بشكل غريب. لم أهتم بهذا، وتمنيت لها صباحًا طيبًا، ومضيت في طريقي إلى موضع المياه. ثم قالت لي المضيفة:

"بارتولوميو يا بني! أنطونيو رجل قَلِق، أرجو ألا يوقع نفسه في مشاكل".

استدرت إليها مندهشًا.

"لمَ تقولين هذا؟".

"ألا تعرف؟ لقد امتطى جواده قبيل هذا الفجر وذهب إلى مكان ما".

"ذهب؟"، ارتبكت للحظة "ذهب إلى أين؟".

"لا أعرف، ولكن كان وجهه.. لو ذهب إلى ديفيد فإن ديفيد متوحش".

كانت مضيفتنا تعصر مئزرها بيديها الاثنتين وتنظر لي بترقب قَلِق. وجهها المغطى من أثر العمر وحياتها الكئيبة، صار مجعدًا أكثر.

أُخذِت فجأة، ووقفت لأفكر في أي شيء. ثم أطعت دافعًا قويًا، امتطيت حصاني وأسرعت تجاه قلعة الشيطان.

ما قاله ديفيد بالأمس كان يدور في ذهني: "إن دخلتما القلعة مجددًا، ستنفتح أمامكما أبواب الأبدية".

تبعت أنطونيو في طريقه. وفي اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليه، شعرت بموجة من الفرح وفي الحال شعرت بأنني ضعيف ومستنزف. في هذا الوقت فقط أدركت تمامًا كم كنت خائفًا. ولكن عندما أكد أنطونيو لي تخمين المضيفة وقال لي إنه كان عليه أن يرى ديفيد وكان في هذا الوقت في طريقه من هناك، وأن ديفيد قَدَّم له هدية عبارة عن حزام وخنجر، أراهما لي مُعَلَّقين حول وسطه، شعرت بالخوف ولم أهتم بالحزام والخنجر، ومن دون أن أقصد ذلك، نظرت بحمق لأفحص أنطونيو شخصيًا، وأنظر له بعمق، وكأني أحاول أن أحدد إن كان حقيقيًا أم خيالاً.

ولكن كما ذكرت سلفًا، فقد اكتشفت كل شيء لاحقًا.

قال أنطونيو:

قبل أن أمتطي جوادي وأنطلق، لم تراودني فكرة أن أزور ديفيد. الآن أعرف أن كل ما حدث حتى هذا الوقت كان بمثابة إعداد لهذا. كان نومي مضطربًا في تلك الليلة. قلقت وتقلبت على السرير حتى منتصف الليل على الأقل، أملاً في أن أتعب وأنعس في النهاية. عندما مرَّ منتصف الليل وأدركت أنه لا أمل في النوم، استيقظت بحذر وارتديت ملابسي وتسللت إلى الخارج. لم يتبقَ أثر من الضباب الذي غطى الوادي كله في اليومين السابقين. كانت السماء تلمع، ربما فكرت أنها صافية بشكل خاص، وعليها كانت تومض النجوم اللامعة التي لا تُعَدُّ كالنيران الصغيرة. كان

الصمت يحل في المكان كله. تركت الفناء وجلست على التل وراء المنزل وبدأت في النظر إلى الأفق بثبات. كان الضوء الغريب يُغَلِّف المكان كله، حتى كان يمكن للمرء أن يعتقد أن الوادي كله يحلم نفس الحلم. وفي ما وراء القرية كانت ذروة الجبل العالي تلامس حافة السماء، وكان من الصعب أن يحدد المرء إن كانت النجوم مُعَلَّقة في السماء أم أنها على الأرض. كنت أنظر لهذا المشهد غير المألوف ولا أفكر في أي شيء على الإطلاق. ولم أعرف كم مرَّ من الوقت. وفجأة، بدأت النجوم تمتد في الأفق، تتحرك في اتجاه بعضها، تمتزج تدريجيًا مع بعضها وتتلاشى. الآن، كان هناك في الأفق عند تَلامُس الجبل مع السماء، في مكان النجوم المتعددة، ضوء ذهبي ساطع على قمة الجبل ويشع حتى السماء. بعد وقت قصير ظهر أربعة رجال في خلفية الضوء المُشِّع والكثيف – ظهروا حرفيًا، طالما أنهم لم يأتوا من مكان بعينه، وكأنهم كانوا هناك دومًا، فقط عيني لم تكن لديها القدرة على رؤيتهم. ثلاثة منهم، وكانوا يرتدون ملابس قديمة بيضاء كالثلج وأياديهم مرفوعة للصلاة، وقفوا إلى جانب بعضهم ينظرون إليَّ، والرابع الذي لم يكن يرتدي الأبيض، ولم أعرف اللون الذي يرتديه، كان محنيًا على ركبتيه أمامهم ويداه مضمومتان على صدره ووجهه منحنٍ لأسفل. وعلى الرغم من أنني لم أتبين ملامح وجوههم في الضوء القوي، إلا أنني عرفتهم على الفور. الأشخاص الذين يرتدون الأبيض ويصلون كانوا إخوتي الروحيين الذين قبلوا منذ عدة سنوات عقاب محكمة التفتيش كالشيء المناسب الوحيد للأرواح الحرة الحقيقية التي تخلت عن تفاهة هذا العالم، بينما الراكع على ركبتيه والذي يحني رأسه في ندم كان ديفيد. ولكن الشيء الأكثر إدهاشًا في هذه الرؤية ليس فقط أنني كنت أرى كل هذا من على التل، ولكني كنت أيضًا مشاركًا في المشهد، كنت موجودًا بينهم، أنا أيضًا كنت أعاني مما يعانون منه، وفي الوقت نفسه كنت أنظر من بعيد على ما أعانيه. أنا لم أعرف إن كان هذا الوجود الكلي قد استمر لفترة قصيرة أم طويلة. أنا أعرف فحسب أنه عند تلاشي الرؤية كنت مستثارًا. كنا في أول الفجر، وما زال الضوء الشاحب والكئيب منتشرًا على المكان. كنت مستثارًا، ولكني كنت واعيًا بأفعالي، وقفت بسرعة، ودخلت الفناء وأخذت حصاني من الإسطبل. قرار أنه عليَّ أن أذهب إلى قلعة الشيطان، كان معروفًا بالفعل لي في هذا الوقت، ولكني لم أعد أعرف لمَ كان عليَّ أن أذهب لأن هذا القرار لا ينتمي لي، سلوكي وأفعالي كان يحكمها نوع من القوة الأخرى المستقلة عني، وإن كان عليها ختم الإيمان. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما وصلت إلى القلعة. وكالمعتاد، كانت الكلاب تندفع على البوابة وهي تنبح، والرجل الأسود ظهر على الفور وسطها. أخبرته وأنا مهتاج أن ينادي ديفيد سريعًا. في هذا الوقت لاحظت لأول مرة أن شيئًا تحرك في وجه الرجل الأسود. وكأنه تمثال دبت فيه الحياة، سقطت أطراف حاجبيه قليلاً وطفت تجاه بعضها. عندما كررت كلمة "سريعًا" له، أومأ الرجل الأسود برأسه وتحرك سريعًا. ظننت أنه سينادي خادمًا، ولكنه عاد وحده، وقال شيئًا للكلاب بلغة مجهولة لي، وفتح البوابة، وأظهر لي الطريق بنفسه، وأخذني إلى نفس القاعة التي قابلنا فيها ديفيد في المرة السابقة".

قال الرجل الأسود:

"استمع (بيبي) إلى صوت الحوافر وسط نومه. كان بيبي ينام في الفناء. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد على الوادي، ولكنها كانت قد فتحت عينيها. كانت السماء حمراء والأرض أقل حمرة. كان السيد الأبيض ممتطيًا حصانه، وكانت عيناه واسعتين. سيقسم بيبي ألف مرة بحقيقة ما رآه،

ولن يكون خائفًا من أن ينتهي إلى الجحيم بسبب الكذب: كانت الشموع تحترق في عيني السيد الأبيض. كان لدى بيبي بصر حاد. شموع بيضاء تحترق في عيني السيد الواسعتين ووجهه كان يحترق. ثم أيقظ بيبي سيد بيبي. إن طلب بيبي ذلك من خادم لم يكن الخادم ليجرؤ على إيقاظ سيد بيبي. جرؤ بيبي، لأن السيد الأبيض كان يملك وجهًا خاف منه بيبي. عندما ذهب بيبي إلى سيد بيبي وأخبره أن السيد الأبيض عاد مجددًا. غضب سيد بيبي في البداية، ثم ضحك وطلب من بيبي أن يدخله. وأدخله بيبي".

قال أنطونيو:

"فتح الرجل الأسود الباب، ولكنه لم يدخل أشار لي أن أدخل وتراجع على الفور. كان ديفيد يرتدي قبقابه الخشبي ويقف هناك محملقا. لا أعرف إن لاحظت أم لا يا بارتولوميو، أن الشخص غير الجذاب سواء كان رجلاً أم امرأة يصير أكثر قبحا عندما يستيقظ من النوم، بينما الشخص الجميل يظل في ذروة جماله في هذا الوقت. كان منظر ديفيد مدهشا".

قال ديفيد:

"فوجئت عندما وقعت عيناي على أنطونيو: كانت عيناه تومضان كالنار ووجهه أحمر كالهواء أثناء حرارة الصيف الشديدة. في النهاية، كان من غير المصدق أن يجرؤ هذا الرجل الذكي على المجيء إلى هنا بعد تحذيري الأخير، بالإضافة إلى ذلك يجب أن تعرف أن القس كان يخبرني عن نواياكما بالتفصيل، والآن أرى هذين العينين تضيئان، لقد ظننت أنه جن".

قال أنطونيو:

"بدا ديفيد مذهولاً لفترة من رؤيتي، ثم كتم غضبه وقال لي بهدوء، ولكن بصوت حاد: "ألم أحذرك أيها الغريب، أنك لو عدت لن تخرج من هنا حي! يبدو أنك تود الموت طالما تجاهلت تحذيري. حسنًا، سوف أهبك رغبتك. ولكن أخبرني أولاً لمَ جئت؟". لم أجبه. لم يخفني تهديده، كنت أعلم جيدًا جدًا أن الموت ينتظرني هنا. لم أجبه لأني لم أعرف إجابة أرد عليه بها، لقد كنت أطيع قوة مجهولة، وهي التي أتت بي إلى هنا، وتلك القوة المجهولة وحدها كانت تعرف سبب مجيئي. ستجيب القوة المجهولة عندما تجد الوقت مناسبًا. أنا شعرت فقط – ولكن من دون تمييز – أن ديفيد نفسه سيكشف لي عاجلاً أو آجلاً سبب مجيئي وما عليَّ أن أفعله".

قال ديفيد:

"لم يُخفه تهديدي، ولم يُجِب على سؤالي، في البداية نظر إليّ، ثم سار متباطئا في أنحاء القاعة، ووصل إلى الجدار الخلفي وبدأ في فحص الأسلحة. كنت أُحَدِّق في ظهره وبدا لي أن هناك شيئًا عليّ أن أذكره، ولكني لا أستطيع".

قال أنطونيو:

"شعرت بتحديقة ديفيد كأنها سهم مغروس في ظهري، كنت أفحص الأسلحة وأنتظره ليتحدث إليَّ مجددًا. في النهاية تحدث، والآن كانت سخريته المألوفة مميزة في صوته: (أنت تستحق جائزة

طالما أنت بهذه الشجاعة. اختر شيئًا تريده من تلك الأسلحة وسيكون هديتك. صحيح أن مصيرك ألا تغادر هذه القلعة، وسريعًا سوف أجعل الكلاب أو رفاقي العطشى للدماء يقطعون رأسك، أو ربما سأقتلك بيدي، ولكن هذا سيكون في ظرف نصف ساعة أو ساعة. قبل ذلك، اختر ما تريده كهدية وسوف تكون ملكك).

قال ديفيد:

"عندما قلت له هذا فهمت على الفور لِم لَم أقتله ساعتها: لقد أغضبتني جرأته وشجاعته. منذ رأيته لأول مرة في الكنيسة كنت أحاول تلقائيًا طوال الوقت أن أخيفه بشكل ما، حتى أقتله وهو خائف. ولكنه لم يكن خائفًا، ولو كان كذلك، فقد أخفى خوفه بشكل جيد جدًا حتى إنني لم ألحظه فيه. الآن استمر في فحص الأسلحة بهدوء. تجاهل تهديدي. فحصها طويلاً. وفي النهاية توقف عند خنجر محدد. كنت قد استوليت على هذا الخنجر، الذي كان بداخل غمد فضي ومقبضه مطلي بالفضة ومعه حزام فضي، من نبيل جورجي من عدة سنوات. نظر إلى الخنجر لفترة طويلة، ثم سحب الغمد من عند نهايته الضيقة. سحب الخنجر وفحصه عن قرب. وفي النهاية قال من دون أن يحرك رأسه: (يعجبني هذا). بتلك الكلمات أنزل الحزام والخنجر وربطهما حول خصره. ثم استدار وقال لي مبتسمًا: (أشكرك على كرمك. عندما أعود إلى بلدي، سوف أعلق الخنجر على رأس سريري، وسوف أخبر الجميع أنه هدية من رئيس عصابة قُطَّاع طرق فقد روحه ولم يستطع إيجادها).

قال أنطونيو:

"بدا الغضب على وجه ديفيد وفجأة، ظهر سكين في يده، ظهر بشكل مفاجئ جدًا حتى إنني لم أستطع معرفة من أين سحبه. كان السكين في كف يده ومقبضه تجاهي. كان يمسكه بأطراف أصابعه، وقال بصوت ينذر بالشر: (لديك حس سخرية عالٍ أيها الغريب، ولكن ديفيد لا يعرف الرحمة)، وفي الوقت نفسه، ألقى السكين نحو الحائط على نفس مستوى عيني، وانغرس بين السيف والمسدس".

قال ديفيد:

"لم ينتفض عَصَب من جسده عندما رأى السكين. ابتسم، وهذا غالبًا ما جعل يدي ترتعش قليلاً. بفضل الله أستطيع الاعتماد على نفسي وأصيب هدفي مهما كنت مهتاجًا. كاد السكين يجز أذنه اليمنى. ولكنه لم يتحرك، ظل ينظر إليَّ مبتسمًا. تلاشى غضبي فجأة، وفي لحظة بدا لي وكأني قضيت حياتي كلها إلى جانب هذا الرجل. ربما أبالغ في ذلك، ولكن لا مبالغة في القول إنه لم يعد من السهل عليَّ قتله. لا أعرف إن كانت عيناي تخدعانني، لا أعرف إن تغير بشكل مفاجئ وغير متوقع في الحقيقة، ولكن لم أعد أشعر بالعداوة ولا بالكراهية في قلبي تجاهه. هذا أربكني قليلاً، لأن شيئًا مثل هذا لم يحدث لي من قبل".

قال أنطونيو:

"هدأ ديفيد سريعًا. بدا أنه أرسل كل غضبه المتفجر مع السكين الذي رماه بالقرب جدًا مني،

حتى إن الهواء البارد الناتج من الاندفاع لامس حَلَمة أذني. ظل لبعض الوقت صامتًا، ووجهه بدا وكأنه يتشكك من هدوئه أو كان متعجبًا إن كان هدوؤه حقيقيًا أم لا، في النهاية نظر إلي عيني وقال لي بصوت هادئ لا تسمع فيه شيئًا سوى الفضول: (أرى أنك تسعى إلى الموت، ولكني لا أفهم لِم عليك أن تموت على يدي). في هذا الوقت كان بإمكاني معرفة الغرض من زيارتي، ولكن من دون وضوح، مثل الفارس الأبيض في الضباب الكثيف، ولهذا السبب لم أكن واعيًا تمامًا به. كلمات ديفيد تناثرت فجأة في الضباب وجعلتني أرى بوضوح، ببساطة وبوضوح كامل، ليس فقط هدفي من المجيء إلى هنا، ولكن أيضًا هدفي من المجيء إلى الوادي، ومن يعلم، ربما غرضي من الارتحال إلى كولخيس بشكل عام".

قال ديفيد:

"أضاء النور مجددًا في عيني أنطونيو، ولكن فمه كان يبتسم وهذا النور وتلك الابتسامة لم يلائما بعضهما. قال لي: (أنا بحق لا أريد أن أموت على يديك، لأن كلينا – أنا وأنت – في تلك الحالة سيُهزَم). لم أفهم ما عناه بتلك الكلمات، وكنت أنظر إليه مندهشًا. كنت أنظر إليه وبدا لي أن تلك الابتسامة تنسج شبكة حولي؛ شعرت بأن هذه الشبكة خطيرة، وكنت أحاول بحنق كبير أن أفك خيوطها. بعد صمت قصير قال أنطونيو: (من أرسلني إلى هنا أَظهر لي أن في كيانك الذي أصبح بائسًا من الخطيئة روحًا ما زالت تنبض، وفي الحفرة المظلمة لجبنك ورعدتك ما زالت تحلق شرارة الشجاعة)".

قال أنطونيو:

"شعر ديفيد بالذهول عند الاستماع إلى ذلك، وصاح في دهشة: (جُبني ورعدتي.. ماذا..؟)".

قال ديفيد:

"توقف أنطونيو عن الابتسام. ولكنَّ عينيه كانتا تومضان مثلما كانتا، وتحدث بهدوء وإقناع وكأنه يتحدث عن شيء رآه بعينيه: (ليس من المفترض أن تكون مندهشًا. أنت جبان ورعديد كسِلفَك وقسه. لقد كنت دومًا خائفًا، أنت خائف الآن، والشر الذي صنعته في حياتك كان من منطلق الخوف)".

قال أنطونيو:

"عندما انقضت الدهشة الأولى من هذه الكلمات، كان يمكن الاستماع إلى النبرة الساخرة في صوت ديفيد: (ولكن ما هو الذي أخاف منه؟، وما الذي أخاف منه الآن؟)".

قال ديفيد:

"ابتسم أنطونيو مجددًا وقال لي: (لقد كنت خائفًا من كل شيء. الجوع، البرد، سيدك، الجَلْد، الهرب، البقاء، الشرطة، المحاكم، السلطات، الملك، الدولة، الناس، الحقيقة، الشرف، الصراحة، الرجولة، الطيبة، الإخلاص، الأصدقاء، الأقارب، الأعداء، الأنسباء، الخونة، الغادرين، محدودي العقل، راجحي العقل، مطاردي المجرمين، المخبرين، العابرين، الكبار، الصغار. لقد كنت خائفًا من

كل شيء، وما زلت خائفًا من كل شيء..)".

قال أنطونيو:

قاطعني ديفيد. ظهر الغضب في عينيه، ولكن عندما رفع صوته بدا لي أن هذا بسبب أن غضبه قوته: (أنت تكذب أيها الغريب! أنت تريد فقط أن تنقذ نفسك. أنت بدأت تندم على عنادك الذي جلبك إلى هنا، وتفكر في تخليص نفسك! ولكن لا أمل في ذلك! سأقطع رقبتك بيدي!)".

قال ديفيد:

"ضحك أنطونيو على هذا. ثم أكمل بهدوء: (أنت خائف. وإن قطعت رقبتي فهذا سيكون نابعًا من خوفك فحسب. يقطع الرجل رقبة الآخر لأنه خائف. يحمل الرجل السلاح لأنه خائف. يقوم الإنسان بالشر فقط لأنه خائف. الشرير يعتبر الشر غير مُبَرَّر كما يعتبره الإنسان الطيب، ولن يقوم به إن لم يُحَوِّله الخوف إلى جبان. الجبان وفاعل الشر هما نفس الإنسان. يصحب الخوف كل الناس منذ ميلادهم، ولكن البعض لديه الشجاعة الكافية لينظروا إلى الخوف في عينيه، والآخرون لا يفعلون. يصير الآخرون جبناء وغير عادلين. خوفنا الداخلي هو الخوف من الموت، ويبدو للشخص الذي يُحَوِّل خوفه إلى خوف من سيده أن حياته نفسها هي أكثر الأشياء قيمة في العالم. إن لم تعرف أن قيمة حياتك لا تزيد على قيمة رجل آخر، هل تعتقد حقًا أنك ستقتله؟ لقد ولدنا في الخوف، ولكننا لسنا جميعًا جبناء. لقد نشأت جبانًا وفَضَّلْت أن تخفي خوفك بدلاً من أن تتجاوزه، لأن إخفاء الخوف أسهل من مواجهته، والقتل أسهل من تحرير الناس، والسرقة أسهل من تقديم المساعدة، والإسقاط أرضًا أسهل من الإقامة، والكراهية أسهل من الحب. لم تكن قادرًا على مسامحة خوفك الداخلي، تحولت هكذا إلى جبان، واخترت الطريق السهلة. أنت خائف من كل شيء خارجك، وتحاول أن تُدَّمِر كل شيء خارجك، ولكن هذا مستحيل. على الرغم من أنك نفسك تعرف أن هذا مستحيل، لن تعترف به. حتى لو استعبدت البلد كله، كما استعبدت سِلفَك الجبان، فهذا لن ينفعك في خوفك: في النهاية، لا يمكنك أن تستعبد حيوانًا متوحشًا، لا يمكنك أن تسيطر وتُخضِع الأشياء، لا يمكنك أن تُلجِم البحر، لا يمكنك أن تختفي من مياه الطوفان، لا يمكنك أن تهرب من بركان، أليس كذلك؟ أنت تعرف هذا، ولكنك تعتقد أنك إن راكمت حيوات الناس الآخرين على خوفك المثير للرثاء، إن ربطته على تمزيق الآخرين ودموع الآخرين وذل الآخرين وبؤس الآخرين، يمكنك أن تخدع نفسك بأنه لأنك لا تراه فهو لم يعد موجودًا. ولكن محاولتك تثبت فقط ضعفك. لم تفعل شيئًا واحدًا يمكن أن يوصف بأنه شجاع! أنت فقط قمعت الذين كانوا أسهل في القمع، سرقت هؤلاء الذين كانوا أسهل في السرقة، وقتلت هؤلاء الذين كانوا أسهل في القتل! كنت دومًا تبحث عن الطريق الآمن! إن اقتربت من أحد أقوى منك، ستبدأ على الفور في البحث عن مكان للاختفاء! خوفك حيٌّ، وفي أحد الأيام سيكون من المحتم أن يندفع بقوته الكاملة، وأن يصل إلى نخاع عظامك، وسوف يتحول إلى الخوف كل وجودك المثير للرثاء من الرأس إلى القدم، إلى منبت شعرك! لقد جئت هنا غير مسلح، إلى عرين القتلة وقطاع الطرق، حيث ينتظرني الموت الأكيد، بينما كانت تحمل مسدسًا تحت ردائك عندما دخلت إلى الكنيسة على الرغم من أنك كنت تعرف أن الناس البائسين سيذعنون لك. تريد أن تستعبد كل الناس،، بينما أنت عبد لخوفك، ودومًا تفعل ما يمليه عليك الخوف. سريعًا سيأتي سيدك الخوف من الخارج، يفاجئك وينظر في عينيك. وسوف

ترى هذا الخوف الذي نشرته بوفرة في الآخرين! آجلاً أو عاجلاً سوف ينقضُّ عليك فجأة من أمامك ويمزقك من دون مهرب إلى أي اتجاه. عندما يصعدك المُعدِم إلى المشنقة وترى الحبل المهتز الذي سيلتف حول عنقك، ستدرك أنك لا شيء سوى الخوف.. عندما تكون وحيدًا في الغابة في منتصف الليل ومجموعة من الذئاب تحيطك ودائرة الموت تبدأ تدريجيًا في الاقتراب، ستدرك أنك لا شيء سوى الخوف. في الصباح عندما تستيقظ لترى مجرمًا يقف فوقك وفوهة مسدسه ملتصقة بجبهتك، ستدرك أنك لا شيء سوى الخوف. عندما يحترق قلبك وأحشاءك وأنت تنهي قنينة ممتلئة بالنبيذ وتشعر بأن واحدًا من أصدقائك المقربين وضع فيها السم خلسة، ستدرك أنك لا شيء سوى الخوف. أعظم خوف وسط كل هذا سينتظرك بعدما يقتلك الخوف من الموت. أعظم خوف ينتظرك عندما تغلفك الخطايا كالديدان ولا تجد روحك الراحة في موضع الراحة. هذا هو ما جئت لأقوله. الآن يمكنك أن تنادي كلابك، أو أصدقاءك الذين ليسوا أفضل من كلابك). صَمَت أنطونيو. صَمَتُّ أيضًا وأخذت أستمِع إلى جسدي. كانت هناك موجة من الغضب أعرفها جيدًا جدًا، لأنها كثيرًا ما قادت أفعالي، والتي تعالت في العديد من المرات، ولكن في هذا الوقت لم تستمر وهبطت في الوقت الذي تعالت فيه.

قال أنطونيو:

"صمت ديفيد لوقت طويل. كانت عيناه نصف مغلقتين وكان يحدق في الحائط ورائي. لم يظهر شيء على وجهه، ولكني شعرت أن قدري الآن مُقرر في قلبه وعقله. سألني بهدوء في النهاية وهو ساكن ومُحدِّق: (إذن فأنت لست خائفًا من الموت؟)".

قال ديفيد:

أجاب أنطونيو بهدوء: (أنا خائف من الموت، ولكني لس خائفًا من الخوف، طالما أنني أعرف عن تجربة أن الحياة لا تستحق أن يصير الإنسان عبدًا للخوف لذاته).

قال أنطونيو:

نظر لي ديفيد في وجهي وحدَّق فيَّ لبعض الوقت بشك وفضول. وفي النهاية سألني: (تعرف عن تجربة؟ تعرف عن أي تجربة؟)".

قال ديفيد:

أجاب أنطونيو: (لقد قلت ما عليَّ أن أقوله وأنهيت مهمتي، الآن حل دورك. عليك أن تنفذ كلمتك).

قال أنطونيو:

"لم يرفع ديفيد عينيه من عليَّ لوقت طويل، لوقت طويل جدًا، وتغير تعبير وجهه، تغير وبشكل كبير، وكأنه يبحث بداخل نفسه عن القوة لطرد شكوكه والوصول إلى القرار الأخير. وفي النهاية، بدا أنه وصل إلى شيء. استعاد للحظة حسه الماكرة والابتسامة الخبيثة على وجهه وتجاوز تردده. التف، وتوجه إلى النافذة ونادى الرجل الأسود. ثم عاد وبدأ في التحديق فيَّ مجددًا. وبعد فترة

قصيرة انفتح الباب وظهر الرجل الأسود عند العتبة. أشار إليه ديفيد بإصبعه. عندما أطاع الرجل الأسود أمره اقترب، أشار ديفيد بيده تجاهي وقال شيئًا له. لم أفهم ما قاله، أظن أنه تكلم باللغة نفسها التي كان ينادي بها الرجل الأسود الكلاب. فقط من خلال نبرة الصوت والتعبير هذا كان بإمكاني معرفة ما كان يحدثه عنه. كانت نبرة صوته غاضبة، ووجهه حاد، وجبهته ترتجف. بدا الغضب في عينيه. أومأ الرجل الأسود برأسه مجيبًا وظهر تعبير قريب من الرضا على وجهه للحظة. ثم أشار إلى الباب بيده، وتبعني بنفسه. كانت تلك دقائق صعبة جدًا يا بارتولوميو، وصدقني كنت واحدًا من أول من تذكرتهم وكنت واحدًا من أوائل من استأذنتهم صامتًا في قلبي. كانت الكلاب تربض على الطريق الواصل بالبوابة، عندما وصلنا لمستواها نصبت آذانها ورفعت رؤوسها. توقفت تلقائيًا، أما الرجل الأسود الذي فهم ذلك بوضوح بطريقته فقد قال شيئًا للكلاب. فأرخت الكلاب آذانها مجددًا. لحقني الرجل الأسود وذهب تجاه البوابة وتبعته، لم أصدق للحظة أنهم قصدوا أن يتركونني حيًا، وعندما فتح الرجل الأسود البوابة، ظهر شيء شبيه بالابتسامة على وجهه، كنت لا أزال أنتظر خدعة خفية. فقط عندما امتطيت حصاني، وتركت سور القلعة ورائي، وعندما أغلق الرجل الأسود، الذي لم أحاول النظر إليه، البوابة التي أصدرت ضوضاء من ورائي، أدركت أنني لم أكن قادرًا على تجاوز خوفي من الموت كما هو واضح".

مرت ثلاثة أيام من دون أن يحدث أي شيء هام أو يستحق الذكر. لم نسمع أي صوت من قلعة الشيطان. كان هناك هدوء في الوادي. الشيء الجديد الوحيد كان أنه في أي مكان نروح إليه أنا وأنطونيو نشعر بتحديقة جواسيس الأمير السريين. يبدو أن الأمير خاف من أن نتسلل إلى خارج المدينة. ولكننا لم نرغب في الهرب ولم نهتم بتلصصهم.

بعد ثلاثة أيام، زارنا ديفيد بشكل غير متوقع بعد منتصف الليل.

كانت مضيفتنا نائمة بالفعل. كنت أجلس أنا وأنطونيو في الفناء نتحدث بهدوء، كان القمر المكتمل يومض بشدة في السماء وكان الليل ساطع كالنهار. فجأة اندفع كلب حراستنا العجوز من بيته وهو ينبح. بدا لنا – في حالتي، كانت هذه هي الفكرة التي مرت بعقلي – أن واحدًا من جواسيس الأمير كان يراقبنا، ومن جزيل وفائه لسيده تجاوز وجرؤ على الاقتراب وكشف نفسه.

ربت أنطونيو على الكلب وهدَّأه ثم أسرعنا إلى البوابة. وفي اللحظة نفسها وصل ديفيد عند البوابة ممتطيًا حصانه الأبيض.

ربطت جأشي أولاً، وفتحت البوابة. ونزل ديفيد.

إن لم أكن قد رأيته بعيني لم أكن لأصدق أن هذا الرجل تغير هكذا في تلك الفترة القصيرة. الآن ثقل غريب حل على حركاته الخفيفة والمستهترة، وعلى رباطة جأشه الخالية من الهم، ومن فخره الداخلي التلقائي، الذي يظهر ليثير الحسد والبهجة في هؤلاء الذين يرونه رغمًا عنهم. غزت التجاعيد جبهته، صارت عيناه غائرتين أكثر وتحيطهما الهالات، هو لم يعد مظهرًا كتفيه كالسابق – عريضتين ومستقيمتين – وبدا مذعنًا بشكل عجيب، ولكن عليَّ أن أعترف بأنني حزين من رؤيته. وصرت حزينًا أكثر عندما بدأ ديفيد في الحديث.

"أمر طيب أنكما ما زلتما مستيقظين". تغير صوته، اختنق وتردد قليلاً، وكأن ثقلاً كبيرًا وعجيبًا يعيق حلقه.

حتى أنطونيو لم يكن هو.

قال بصوت غير مألوف، وكان منخفضًا ومختنقًا: "دعنا ندخل".

ذهبنا إلى الشرفة ودخلنا غرفة أنطونيو. أحضر أنطونيو كرسيًا لديفيد، ثم أشعل الشموع.

لم أرفع عيني من على ديفيد، كنت أحاول بلا جدوى أن أرى آثَارًا من جماله الآسر. كانت ملامحه كما هي، مميزة وكاملة، ولكن كآبة غير مألوفة استقرت بينها، وهذه الكآبة منعته من التطابق مع الانسجام الذي يجلب للجمال قوته الحقيقية.

كنت أنا وأنطونيو ننتظره في صمت. كان أنطونيو شاحبًا جدًا، وكان ديفيد ينظر إلى يديه، ولكن من آنٍ لآخر تنظر عيناه نحو سرير أنطونيو، حيث يعلق حزامه وخنجره الفضيين. في النهاية، أحنى رأسه وعينيه، وقال ببطء وبصوت منخفض:

"إن كان الهدف من زيارتك هو أن تتلاعب بي وتخدعني إذن فأنا خُدِعْت، لقد جئت غير مسلح ولست مستعدًا للدفاع عن نفسي بأي وسيلة".

بدا أن شيئًا يتمزق في قلبي، وصار أنطونيو أكثر شحوبًا وبلع ريقه مرتين أو ثلاثًا.

رد أنطونيو في النهاية: "لقد جئت فحسب لأن عدم المجيء لم يكن اختيارًا بالنسبة لي. ولقد أخبرتك فقط بالأشياء التي لم أملك القوة على التراجع عن قولها".

نظر ديفيد سريعًا إليه، وكأنه يتفحص الحقيقة فيما قاله، وأنزل عينيه مجددًا، وسأل فجأة:

"أين هي معرفتي؟".

رد أنطونيو بهدوء: "في عقلك".

"وعقلي؟".

"في روحك".

"وروحي؟".

"في الله".

"وأين الله بحق؟".

"الله هو كل شيء، ما هو موجود وما هو غير موجود".

حل الصمت مجددًا. كان ديفيد متوترًا ويفكر في شيء. وفي النهاية، رفع رأسه، وهنا نظر مباشرة إلى أنطونيو وسأله:

"كيف تجاوزت الخوف من الخوف؟".

في الوقت نفسه، كنت ما زلت لا أعرف تفاصيل حوارهما التي وصفتها سابقًا. لهذا السبب، لم أعرف ما الذي يتحدثان عنه.

صمت أنطونيو لبعض الوقت. ثم قال بنبرة حزينة:

"سوف أخبرك.. لا أحد يعرف هذه القصة سوى بارتولوميو. أخبرته فقط عندما أصبحنا صديقين حميمين..".

وببطء وبتدبر، وبصوت منكسر قليلاً وأكثر إثارة من السابق، استعاد قصته عن المحاكمة.

كان النسيم الخفيف يهب من النافذة هذا الذي جعل لهب الشمع يتراقص قليلاً، ووسط الصمت الثقيل كان بالإمكان سماع صوته – لم نكن نستمع إليه فحسب، ولكن يبدو أنه كان بالإمكان رؤية حديثه كأشياء محسوسة.

عندما أنهى أنطونيو قصته، صَمَت ثلاثتنا لفترة طويلة، لفترة طويلة جدًا.

اخترق ديفيد الصمت أخيرًا:

"لقد سَرَّحت عصابتي..". تحدث ببطء وبصعوبة، وكان من الواضح أنه يجبر نفسه على الحديث. كنت أراقب ديفيد طوال الوقت، ولكني كنت ألاحظ أنطونيو وهو يرتجف أثناء حديثه. "أعطيت كل منهم نصيبه وسرحته.. على أي حال، كانوا دومًا يشكون ويريدون المغادرة. كانوا منزعجين من الترحال، واشتاقوا لحياة هادئة.. بقيت أنا وبيبي فقط". صمت وظل صامتًا لبعض الوقت وكأنه يتوقع أن نقاطعه، ولكن لا أنا ولا أنطونيو جرؤنا على قطع الصمت. ثم أكمل بنفسه مجددًا: "كان عليَّ أن آتي لأقرر مصيري. لم أكن قادرًا على تقريره بنفسي.. كم عدد المرات التي ندمت فيها على عدم قتلك. لو قتلتك، ربما جلب إليَّ هذا بعض الراحة. ولكني لم أقتلك.. أنا لا أعرف إن كنت ملاكًا أم شيطانًا، أنا أعرف فحسب أن مصيري في يديك. أخبرني ما عليَّ أن أفعله".

جلس أنطونيو ورأسه منحنٍ كتلميذ تعرض لتوه للتوبيخ، وأجاب في النهاية بنبرة مذنبة:

"أنا لا أعرف شيئًا أكثر مما قلته لك..".

رفع ديفيد رأسه ولبعض الوقت نظر إلى أنطونيو في صمت، ثم تحول فجأة إليَّ:

"إذن قل لي أنت، في النهاية أنت أكثر ذكاءً!".

كنت أعتبر نفسي دخيلاً على هذا الحوار، ولم تكن لديَّ النية في الانضمام إليه، ناهيك عن أن أقدم نصيحة. لهذا السبب، فاجأتني أنا نفسي نبرتي الواثقة:

"خذ كل أموالك وممتلكاتك، واذهب إلى آخالتسيخ وحرر أكبر قدر تستطيعه من الأسرى، ودعنا

نقرر الباقي لاحقًا".

نظر ديفيد لي أولاً، ثم إلى أنطونيو، وعندما ابتسم أنطونيو بحزن وأومأ برأسه موافقًا، وقف على قدميه. وعاد أثر الحياة مجددًا إلى وجهه.

"سأقوم بهذا.." تردد قليلاً بعدما قال هذا. "لن تغادرا قبل أن أعود، أليس كذلك؟ ستنتظرانني، أليس كذلك؟".

أجاب أنطونيو: "طالما وافق بارتولوميو سوف أنتظرك".

عاد ديفيد بعد أسبوعين.

عاد بعد منتصف الليل كالسابق، ولكن هذه المرة على قدميه، من دون حصان، كان يرتدي ملابس مجعدة. بدا مذعنًا بشكل أكبر، ومثقلاً أكثر ومغتمًا أكثر. عندما أدخلناه، سقط منهكًا على الكرسي، وجلس هكذا صامتًا لبعض الوقت، ثم تحدث بعد وقت طويل:

"ما الذي عليَّ أن أفعله الآن؟"، سأل بألم كبير حتى إنني وأنطونيو فزعنا.

سألته: "ما الذي حدث؟".

رفع رأسه ببطء. ولكنه لم ينظر إلينا، كان يحدق بتركيز في مكان ما خلف النافذة.

بدأ بهدوء ولكن بحزن كبير: "إن اليقظة صعبة.. أتعجب إن كان من الممكن لشخص لديه مال كافٍ أن يحرر كل الأسرى؟ إن جسدي ممتلئ بالثعابين..". نظر أولاً إلى أنطونيو ثم إليَّ، واستمر بنبرة أهدأ: "عندما شاع في السوق أن رجلاً غريبًا يشتري الأسرى ويحررهم، وعندما رأوا قلنسوتي - ربطت هذه القلنسوة على وجهي مخافة أن يعرفني المُحَرَّرون - صار الأسرى المعروضون للبيع مستثارين، وبدأ شعاع الأمل يظهر في أعينهم.. عندما لم يعد لديَّ مال متبق بعت جيادي، الحصانين اللذين لديَّ – حصاني وحصان الرجل الأسود – وجمعت مالاً كافيًا لأحرر أسيرًا آخر.. أسيرًا واحدًا. كان هناك العديد منهم لديهم أمل.. كيف يمكنني الاختيار؟ أي منهم عليَّ أن أختار؟ أي سمات يجب أن أختارها؟". دفن ديفيد مجددًا رأسه بين يديه، وصمت لبعض الوقت. ثم قال: "الآن أرى أن الموت ليس أسوأ الأشياء التي يمكن أن تحدث للأسير في الحياة..".

قال أنطونيو له بهدوء واطمئنان وصوته الآن صار أكثر دفئًا وتعاطفًا من أي مرة سمعته فيها من قبل: "لا تخف. ألمك هو الدواء الذي سيعالجك. سينظر الله إلى عذابك ويسامحك على خطاياك".

"هل تعتقد أنه من الممكن مغفرة أي شيء". سأل ديفيد بمرارة وبصوت منخفض، من دون أن يرفع رأسه.

أجاب أنطونيو: "الله نفسه هو المغفرة".

رفع ديفيد رأسه وومضت عيناه للحظة: "لا، إن كان الله موجودًا، وهو إله بالفعل، من

المستحيل أن تُغفَر تلك الخطايا. إن كان سيغفر لي، إذن ما الإجابة التي سأقدمها لهؤلاء الذين كانوا ضحايا خطاياي؟ لا، من الأفضل أن أجد كهفًا في مكان ما في الغابة، أبقى هناك وأظل جالسًا بلا حراك حتى يمزقني حيوان متوحش أو أن أموت من الجوع والعطش..".

نظر أنطونيو إلى ديفيد، ثم قام من دون أن ينطق بكلمة، أمسك بالإنجيل الموضوع على عتبة النافذة إلى جانب الشمعدان، وجلس مجددًا في مكانه وبدأ يقلب الأوراق.

قال، بينما يقلب أوراق الكتاب بحثًا عن شيء ما: "سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح، صُنِع من لحم ودم وأُرسِل إلى العالم كإنسان ليرى بنفسه ما الذي يُجبِر الإنسان على سلوك طريق الشر، وإن كان يميل حقًا بطبيعته نحو الشر أم لا. أن تقتل نفسك بلا مبرر ليس سلوكًا يقبله الله". في هذا الوقت وجد ما كان يبحث عنه. "هنا مكتوب باللاتينية. سوف أقرأ وسيترجم لك بارتولوميو". بتلك الكلمات بدأ بقراءة قصة الابن الضال[8].

ترجمت كلمة بكلمة، أحيانًا إلى الجورجية، وأحيانًا إلى التركية، عندما لم أجد الكلمة الجورجية المناسبة. ديفيد الذي كان يتأمل غارقًا في أفكاره، كان يحدق في جهة واحدة. ظل صامتًا لبعض الوقت بعدما أنهى أنطونيو القراءة. ثم قال:

"خطاياي كبيرة ولا تُعَد".

رد أنطونيو: "المغفرة هي الإجابة على التوبة. بخلاف الإنسان، يستطيع الله أن يميز بحق بين الصحيح والزائف. من يتوب بقلبه وليس فقط بكلماته، كما اعتاد الفريسيون أن يفعلوا، ستتم مسامحتهم بالفعل". بتلك الكلمات قلب صفحات أخرى ثم قرأ قصة العشار حتى الجزء المكتوب فيه: "لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك"[9].

في هذا الوقت ظل ديفيد صامتًا أكثر من ذي قبل، ثم قال فجأة:

"اقرأها من البداية" وكأنه ارتكب خطأ عن غير قصد أضاف: "هل هذا ممكن؟".

رد أنطونيو وهو يفتح الكتاب حيث بدأ إنجيل متى[10] "بالطبع"، وبدأ في القراءة.

جلس ديفيد منهكًا، والحزن العميق يغزو التجاعيد بين ملامحه، ما يجعله يبدو مسنًا قبل الأوان.

رحل ديفيد عندما صارت الظلمة أقل قتامة، لكي يعود إلى القلعة قبل أن تستيقظ القرية. تردد لبعض الوقت عند الباب قبل الرحيل، كأنه يفكر في شيء في ذهنه، ثم نظر وسأل بخجل:

"هل يمكنني أن آتي الليلة؟".

رد أنطونيو: "تعالَ".

لتسع ليالٍ قرأنا الإنجيل المقدس، قرأناه مرتين بالكامل. في البداية، كان يمكنك أن تظن أن ديفيد نصف نائم. كان يستمع إلينا في نشوة دون أن ينطق بكلمة. في النهاية، خاصة بعدما أنهينا أول قراءة وبدأنا في الثانية، انتعش قليلاً. وبعدما تعبنا من القراءة، وضعنا الكتاب جانبًا لوقت قصير

وبدأنا في مناقشة المستقبل، وكان ينضم إلينا أحيانًا. القرار المتعلق بمستقبل ديفيد كان مسألة ملحة جدًا. لم نكن خائفين من مضيفتنا العجوز. في هذا الوقت كان الطرفين قد وثقا في بعضهما من دون كلمات ومن دون قول أي شيء، تصرفت العجوز وكأنها لا تعرف شيئًا عن زيارات ديفيد الليلية، ونحن تصرفنا وكأننا نظن أنها لا تعرف شيئًا. ولكن كان من المتوقع أن يتشكك جواسيس الأمير. لهذا السبب كان علينا أن نقرر شيئًا سريعًا، وكان على ديفيد أن يمضي في وقت ما في طريق أو آخر. شعر أنطونيو الآن بثقل المسئولية الكبير، وفكر في كل البدائل بخوف وحرص شديدين. ولا يمكن لومه على هذا: عندما اندفع نحو ديفيد في قلعته، سكنت قوة مجهولة كيانه، كما أدرك هو بنفسه، قوة لا تضع العقل في الاعتبار، ولكن إن كان يعرف أنه سيدمر ديفيد – القاتل، والسارق وقاطع الطريق – وبدلاً من ذلك سيصنع شخصًا مختلفًا تمامًا، ربما لم يكن ليجرؤ على اتخاذ مثل تلك الخطوة لأنه سيدرك أيضًا أنه يتحمل المسئولية المطلقة على صنعه. لهذا السبب كان يفكر في كل شيء بحرص حتى لا يرتكب خطأ ينتهي إلى أن يكون مميتًا. في النهاية، مال تجاه فكرة أن ديفيد عليه أن يلجأ إلى سائح أو راهب ناسك ويقضي حياته في الخضوع والصلاة وخدمة الله. بقدر ما كنت مهتما، كشخص علماني وعاقل، لم أرد أن أدع موهبة ديفيد تُبَدَّد. تجربته، التي خدمت لحد الآن مصالحه الشرية، يمكنها أن تخدم المصالح الطيبة، ولكن لم أجد طريقًا لذلك.

لم يكن ديفيد قادرًا على تقرير أي شيء بنفسه. في الحقيقة ذكر مجددًا نيته الأولى – أن يمضي إلى أحد الكهوف وينتظر الموت – ولكن أنا وأنطونيو رفضنا هذه النية تمامًا ونهائيًا، ولم يكرر ذكرها مجددًا. بدا أنه يثق فينا تمامًا – في أنطونيو أكثر مني – وانتظر منا نصيحة كان مستعدًا لقبولها كأمر.

مرت تسع ليالٍ بهذه الطريقة. في الليلة التاسعة – بالضبط بعد منتصف الليل، عندما أنهينا القراءة الثانية للإنجيل المقدس – أراد أن يعود إلى القلعة في وقت أبكر من المعتاد. قبل المغادرة، أغلق الباب مجددًا الذي فتحه بالفعل، وكان مستعدًا للخروج، استدار لنا كما لو أنه قرر فجأة شيئًا كان يتردد في التصريح به حتى الآن ثم قال:

"أنطونيو! أنت تفكر الآن وهذا هو السبب في ترددك. في وقت أبكر لم تكن تفكر وهذا هو سبب أنك لم تكن تتردد. ربما كنت على حق ساعتها، وأنت أيضًا على حق الآن. أي رجل ذي عينين مفتوحتين عليه أن يعتني بنفسه وأن يقرر مصيره بنفسه. ما زلت لا أعرف أي طريق سأخوض. ربما سأذهب حقًا إلى أحد الكهوف في مكان ما وأنتظر موتي، ربما ألجأ إلى راهب ناسك وأقضي بقية حياتي أصلي، وربما أجد طريقًا آخر وأحاول أن أكفِّر عن خطاياي. أعرف أنه مهما كان الطريق الذي أختاره فعليَّ أن أظل في هذا الوادي لبعض الوقت لأن أهم شيء يجب أن يُقَرَّر هنا. هذا هو ما ينبغي أن أقوله، والآن دعنا نتحدث عنك. ربما لاحظت كيف لا يرفع رجال الأمير أعينهم من عليك، وإن قررت المغادرة، أشك في أنهم سيتركونك تغادر حيًا. لا تثق في الأمير. عندما تقرر الذهاب تعالَ إلى القلعة. بيبي يعرف كل الطرق هنا، كل الأشجار وكل الشجيرات. سيكون قادرًا على أن يخرجك إلى مكان آمن من دون أن يلاحظ أحد أي شيء. امضِ في سلام!" بتلك الكلمات فتح الباب مجددًا وخرج قبل أن أفكر أنا أو أنطونيو في أي شيء.

أزعجتنا كلمات ديفيد وجلسنا نناقش، لوقت طويل بعدما رحل، ما الذي عناه بأهم شيء عليه أن

يقرره هنا في الوادي. فاجأنا الفجر، بينما نفكر ونتناقش، ولكننا لم ننتبه. في تلك الأيام التسعة، بينما كنا نقرأ على ديفيد الإنجيل المقدس، كنا معتادين بالفعل على قضاء الليل متيقظين وننام في النهار بدلاً من ذلك.

لم يظهر ديفيد في تلك الليلة. وفي اليوم التالي، في الصباح عندما انتهينا لتونا من غسل أيدينا ووجوهنا، وكنا ننتظر من مضيفتنا أن تحضر لنا الإفطار، سمعنا فجأة صرخات يائسة. قفزنا على أقدامنا ونحن مذهولين. اندفع أنطونيو إلى الشرفة، وتبعته وأنا أدفس مسدسين في قمة بنطالي تحت قميصي، العادة التي اكتسبتها خلال السفر. وفي اللحظة التي خرجت فيها إلى الشرفة، اندفع عبد ديفيد الأسود إلى الفناء كالطلقة.

"أيها السيدان الطيبان! إنهم يقتلون سيد بيبي! ساعداه أيها السيدان الطيبان! إنهم يلقون الحجارة على سيد بيبي!".

ناداه أنطونيو وكلانا ينزل: "أين هو؟".

"إنه في فناء الكنيسة.. من فضلكما ساعداه بسرعة، وإلا سيقتلون سيد بيبي!".

قفزت أنا وأنطونيو على جيادنا بسرعة البرق. وتبعنا الرجل الأسود على قدميه.

تكشَّف منظر قبيح أمام أعيننا في فناء الكنيسة: في الجانب الشمالي، عند أسفل الجدار، كان ديفيد مُلقى على ركبتيه، وجهه دام ومنحنٍ لأسفل. كان حافي القدمين، وسلسلة كثيفة ضخمة موضوعة على رقبته، جزء منها كان يجرحه تحت صدره. وعلى بعد عدة خطوات، كانت وجوههم مستثارة بوحشية، كان يقف سبعة أو ثمانية رجال، هم جميعًا خدم بلاط الأمير، ومعهم القس. جميعًا يحملون الحجارة في أياديهم باستثناء القس.

"توقفوا عن ذلك! ما الذي تفعلونه؟"، صرخ أنطونيو فيهم بصوت غير إنساني، وفي الوقت نفسه نزلنا من على جوادينا في منتصف الطريق بينهم وبين ديفيد. مظهرنا غير المتوقع أربكهم جميعًا، وتجمدت حجارتهم وأياديهم مرفوعة بها. وسريعًا ظهر أنطونيو إلى جانب ديفيد. لم أقرر في عقلي إن كان عليَّ أن أساعد أنطونيو أم أن أقف في طريق هؤلاء المجرمين الخبثاء، حتى جاء القس وصرخ فيهم بازدراء وغضب:

"اضربوا الغريبين! اضربوا تلميذي الجحيم!".

لم يكن لديَّ خيار آخر: في اللحظة التي رفعوا فيها الحجارة محذرين التصقت بأياديهم، فقد رفعت المسدسين في نفس الوقت.

"ألقوا بالحجارة إن لم تكونوا قد فقدتم إرادة الحياة!" صرخت فيهم بصوت أخافني أنا شخصيًا. احمر وجهي وارتعش جسدي كله.

قام مسدسي وصوتي بالتأثير الفوري. أنزلوا مجددًا أياديهم المرفوعة. ولكن لاحقًا، عندما فتحوا أياديهم وألقوا بالحجارة على الأرض بصوت مكتوم، لم أكن أعرف من كان يسيطر عليَّ في

هذا الوقت، لأني نفسي لم يكن لديَّ وقت للتفكير والتدبير، أضفت مهددًا بشدة:

"ابتعدوا، تراجعوا، سأطلق النار على أي راجم!".

وسط خوفهم حاولوا بالفعل ألا يتعثروا في بعضهم وهم يعودون بظهورهم. جروا بسرعة فائقة ولم ينظر أحد للوراء.

ثم عدت إلى ديفيد. كان أنطونيو في هذا الوقت قد فك السلسلة ومسح الدماء بمساعدة الرجل الأسود. لم يكن ديفيد في وعيه. جرى الرجل الأسود العديد من المرات يحمل في يديه المضمومتين الماء الآتي من النبع القريب الموجود في جانب الكنيسة. غسلنا جروحه، ولكن هذا لم يرده لوعيه.

قلت لأنطونيو: "علينا أن نسرع، يمكنهم بسهولة أن يحضروا بعض البنادق ويعودوا".

أومأ أنطونيو برأسه، ثم قال لي:

"لا يمكننا أن نأخذه إلى مكاننا، إنه خطر".

وافقت: "ليس لمكاننا، علينا أن نأخذه إلى القلعة".

"ولكن علينا أن نمر بالمنزل في الطريق، نريد زيتًا وأربطة".

"سأمر أنا به".

ولكونه لا يفهم لغتنا، لم يكن الرجل الأسود يعرف إن كان سيده حيًا أم لا. ولهذا السبب كان يُحَدِّق فينا تحديقة خائفة، أحيانًا فيَّ وأحيانا في أنطونيو.

قال أنطونيو: "حسنًا، سنتحرك". ثم وجَّه كلامه للرجل الأسود وقال له بالتركية: "تعالَ وساعدني!".

سعد الرجل الأسود لأنه فهم شيئًا، وكان لديه شيء ليفعله، امتطى أنطونيو حصانه، ورفعت أنا والرجل الأسود ديفيد وأجلسناه في مواجهة أنطونيو. ثم امتطيت حصاني.

عندما تركنا فناء الكنيسة وراءنا رأينا عدة رجال ونساء أسفل الطريق، بدا أن صرخات الرجل الأسود أحضرتهم ليروا ما الذي يحدث. توقفوا عندما رأونا، لم يبدوا عدائيين، لذلك استكملنا طريقنا بجرأة. كان أنطونيو في المقدمة وأنا بعده، ووراءنا الرجل الأسود. عندما اقتربنا منهم، تحركوا إلى جانب الطريق وتركونا نعبر، وبعد ذلك عندما مررنا بينهم وواصلنا طريقنا، وتبعونا بأعينهم بصمت.

عند تقاطع الطريق صعد أنطونيو والرجل الأسود إلى القلعة، بينما نزلت أنا المنحدر. قابلتنا مضيفتنا في الفناء، قفزت من على حصاني وصعدت سريعًا إلى الشرفة ودخلت. عندما أخذت صندوق الأدوية قبل أن أعود مجددًا، أدركت فجأة أن مصيري أنا وأنطونيو ربما يكون ألا نعود إلى هنا أبدًا. وبالإضافة إلى ذلك فالأمير الغاضب سيسرق مسكننا ورجاله سينهبون أي شيء يضعون أياديهم عليه. بعد قليل من التفكير أخذت أموالنا والأشياء الأساسية، ومنها الحزام والخنجر

الفضيان الخاصان بديفيد. تركت كتبنا، ولكن عندما خرجت إلى الشرق عدت مجددًا وأخذت الإنجيل معي. وضعت كل شيء في حقيبتين كبيرتين وربطتهما معا كحقائب السِرْج وحَمَّلتهما على الحصان.

وقفت المضيفة في الفناء وتبعت إعداداتي بعينيها.

رأيت الآخرين في الطريق ووصلنا سريعًا إلى القلعة من دون عقبات.

جاءت الكلاب لتلتقينا عند البوابة. كانت تهز أذيالها، ولكن عادة كان ستتوقف عن الهز وستنصب آذانها، في هذه اللحظة بدا أنهم كانوا يعبرون عن عدم ثقتهم فيَّ وفي أنطونيو. ولكن عندما فتح الرجل الأسود الباب وقال شيئًا لهم بلغته، هدأوا في النهاية.

نزعنا الملابس عن ديفيد ووضعناه على أحد الأسرَّة. كان رأسه مجروحًا في أماكن ثلاثة، وكتفه اليسرى كانت مكسورة، وصدره ورقبته سوداوين وزرقاوين، أصابته العديد من الحجارة في ظهره وكتفيه، يبدو أنها أصابته بعدما سقط على الأرض منهكًا ووجهه لأسفل. لحسن الحظ لم تمثل أي الجروح خطرًا على الحياة. نظفنا جروحه كلها مجددًا، ووضعنا الدهان والأربطة، وبعد وقت قصير عاد ديفيد للوعي، فتح عينيه، نظر لبعض الوقت في صمت تجاه أنطونيو (الذي كان ساقطًا على ركبتيه عند الأريكة العثمانية يمسك بمعصم ديفيد في يده)، ثم أغلقهما مجددًا. وفي النهاية استيقظ عند الظهيرة، ولكنه كان يتحدث بصعوبة. لقد فقد العديد من الدماء، وكان واهنًا.

كان أنطونيو يحتاج إلى عصير الرمان والشمندر لإعداد الدواء الضروري، بحث الرجل الأسود في مخزن المؤن من أعلى لأسفل، ولكنه لم يجد رمانًا ولا شمندر. ظلت نفسيته سيئة طوال اليوم وهو ينظر شاعرًا بالذنب وكأنه ملوم على ذلك. وعند حلول المساء قال لي:

"سيذهب بيبي إلى القرية وسيأتي بالرمان والشمندر".

"حسنًا، من أين ستأتي بهما؟"، أحبطت خطته. "من سيعطيهما لك؟".

هزَّ الرجل الأسود رأسه.

"بيبي يعرف!".

أنا وأنطونيو لم نرد أن ندعه يذهب، ولكن ديفيد الذي كان يستمع إلى حوارنا وعيناه مغلقتان، قال بصوت ضعيف:

"دعاه يذهب، لا تقلقا على بيبي".

عندما صارت الظلمة حالكة غادر الرجل الأسود مع كلبين اثنين، وعند منتصف الليل عاد بسلة ممتلئة إلى حافتها بالرمان والشمندر.

قال سعيدًا: "ها هما، إن بيبي يعرف!".

كان بيبي بالفعل "يعرف". بفضل مهارته وخبرته لم نحتج نحن ولا مريضنا إلى أي شيء، بينما

كنا محاصرين في القلعة. كان يتسلل من القلعة بهدوء ثم يتسلل إليها مجددًا بعد عدة ساعات مُحَمَّلاً بالمؤن. لقد لاقيت العديد من الضيقات خلال أسفاري، وأعترف بأن من ضمنها أشياء كانت تجعلني أغضُّ بصري عن بعض الوصايا المسيحية حتى أعيش، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي آكل فيها طعامًا مسروقًا ولا يبكتني ضميري على ذلك. كان بيبي فخورًا بمهارته، اعتاد أن يضع البضائع المسروقة أمامنا بوجه مغرور، واعتاد أن ينتظر بصبر أن نمدحه على وفائه وخدمته الحريصة، حتى إنه لو كان هناك شخص أكثر لطفًا منا فلن يستطيع أن يمنع ضحكه، ولكن الضحك نفسه كما تعرفون هو أفضل مزلاج للباب الذي منه يخرج صوت الوعي.

كان بيبي حزينًا في البداية. لم يكن يعرف إن كان ديفيد سيعيش أم لا، ولم يجرؤ على سؤالنا مخافة أن تنزع عنه إجابتنا كل الأمل. حاول أن يجد شيئًا مريحًا في سلوكنا وتعبيراتنا، وبالبحث عن ذلك كان أحيانًا ما يحدق فينا بشكل مثير للتعاطف، بدا لي أنه ربما يبدأ في الأنين قريبًا. ولكن لاحقًا، عندما رأى أن ديفيد تعافى، تحولت كآبته المفرطة المبكرة إلى بهجة بنفس القدر من الإفراط.

بفضل بنية ديفيد القوية ومهارة أنطونيو بدأ ديفيد في التعافي بشكل ملحوظ يوميًا. بعد يومين وصف أنطونيو له القليل من النبيذ. التأمت الجروح سريعًا، وكنا الآن ننتظره ليستعيد قوة كافية يكون قادرًا على امتطاء حصانه حتى نستطيع أن نتسلل من هنا. كان لدينا حصانان، ووَعَد بيبي بحصانين آخرين، قال لنا: "بيبي يعرف. سيجلب بيبي حصانين في اليوم الذي يقرر فيه السادة المغادرة". ولأن بيبي اعتاد أن يكون أمينًا على كلمته، فلم يعد لدينا أي شك.

لم نسمع شيئًا من الأمير والقس، ومن جهة ما كنا سعيدين لذلك، ولكن من جهة أخرى جعلنا هذا قلقين ومتوجسين، طالما أن صمت الأمير في هذا الوقت، بينما يعرف أننا مبتلان، يمكن أن يشير إلى أنه يُرَتِّب خدعة ماكرة أو يُعِدَّ شركًا مختبأً لنا. من جهتنا، أخذنا كل الحذر الذي نستطيعه، وكنا دومًا متأهبين للقتال. في الحقيقة، كان ديفيد قد باع كل ممتلكاته، بما فيها الأسلحة، عندما ذهب إلى آخالتسيخ ليحرر الأسرى، ولكنه احتفظ ببندقيتين وأربعة مسدسات وأبقينا عليها، إلى جانب مسدسي، وكانت الأسلحة جاهزة طوال الوقت. كما بدا، فلم يرغب الأمير في الهجوم طالما أنه لو أراد فعل ذلك سيُفَضِّل أن يستخدم الثلاثة أو الأربعة أيام التي كان ديفيد فيها ما زال ضعيفًا وغير قادر على المشاركة في أي قتال. لهذا السباب وصلنا أنا وأنطونيو إلى نتيجة أنه إما أن وثيقة الحصانة تمنعه أو أنه بالفعل يعد شركًا خادعًا لنا. فكرنا كثيرًا في هذا، وأعملنا عقولنا كثيرًا، ونظرنا في كل إمكانية، ولكننا خُدِعنا في النهاية.

كان قد مرَّ أسبوعان.

بعدما تعافى إلى حد ما واستعاد الطاقة الكافية للحديث، فتح ديفيد تدريجيًا قلبه لي وسريعًا أصبحا صديقين في هذا الوقت، أعاد لي قصة زيارة أنطونيو المفاجئة التي وصفتها سابقًا. لاحظت أنه كان يستمتع بالحديث لي. كما هو واضح، كان يتحدث أيضًا في وجود أنطونيو، ولكن فقط ليقول ما هو ضروري أو ما حدث بشكل طبيعي في الحوار العام الخالي من الشك والذي لا يحتاج إلى أي توضيح. ولكن إليَّ فقط كان يعهد بأفكاره الداخلية، الموجودة في أعماق قلبه، التي فكر

فيها كثيرًا وظلت في عقله طويلاً، ولهذا السبب، هي أفكار غير مؤكدة وبحاجة إلى التساؤل. ولكنه لم يكن يفعل ذلك لأنه كان يحبني أكثر من أنطونيو، أو أنه صار مقربًا مني أكثر منه. لا، كان يتحدث إليَّ لأنه لم يكن جريئًا بما يكفي ليتحدث إلى أنطونيو. إن كان يمكن أن أستعين بمجاز؛ فديفيد كان مثل الشاب الذي لديه رغبة كبيرة للحديث عن مغامرته العاطفية الأولى لأخيه الأكبر المحبوب، ولكن الخوف من أن تبدو هذه المغامرة طفولية وساذجة وحمقاء من منظور خبرة وذكاء الأخ العظيمين، تجعله يفضل بالأحرى أن يبوح بها إلى صديق في مثل عمره، صديق من دون تجربة وساذج مثله. عاتبني لأنني فَرَّقت رجال الأمير والقس لأن هذا أنقذه من الموت. وللحديث بدقة، هو انتقدنا نحن الاثنين. كان لا يزال ضعيفًا، وبالكاد كان قادرًا على أن يقول بصوت ضعيف: "أتساءل، إن لم توقف هؤلاء الناس عن رجمي حتى الموت، لكنت مستريحًا الآن". ولكن عندما احتاجت تلك الرغبة غير المُدرَكة إلى توضيح وشرح، اختار وقتًا لم يكن أنطونيو موجودًا فيه بالغرفة. أذكر كيف استلقى دون حركة على ظهره وعيناه مغلقتان وظننت أنه نائم، حين بدأ يقول فجأة بصوت هادئ وحزين:

"لقد تصرفت بسوء تجاهي يا بارتولوميو، أنت وأنطونيو.. في الوقت الذي شعرت فيه بأنني تجاوزت الخوف من الموت، لم تتيحا لي الفرصة كي أموت. ما الذي تريدانه مني؟". صمت، وشَرَد لبعض الوقت في أفكاره هادئًا. ثم أكمل: "في البداية، ولأتحدث بصدق، كنت مذهولاً عندما رأيت القس ورجال سِلْفي، ظننت أنهم ظهروا مصادفة، ولكن في لحظة ما تذكرت أنني عندما وصلت، لاحظت كومة حجارة بجانب الجدار، وأدركت أنهم مُستعَدُّون. بدا أنهم رأوني في الصباح السابق عندما ذهبت إلى الكنيسة على ركبتيَّ، فعرفوا أنني سأعود مجددًا هذا الصباح، لقد جمعوا الحجارة مقدمًا.. هذا هدأني، ولكن بعد ذلك عندما أصابني أول حجر.. كنت على ركبتيَّ إلى جانب جدار الكنيسة مواجهًا لهم، وكان بإمكاني أن أراهم جميعًا بوضوح، لأن أشعة الشمس المشرقة كانت على وجوههم.. عندما أصابني أول حجر، وجوههم وأعينهم، التي ظهرت في البداية لي شريرة وغاضبة، تغيرت الآن إلى وجوه وأعين أصدقاء وجيران مخلصين، وكأن الله نظر إليَّ برحمته وأرسل الملائكة ليلقوا بالحجارة على جسدي حتى يستطيعوا تخليص روحي. شعرت ساعتها لأول مرة بما هي البهجة الحقيقية. آمنت أنه بعد الموت كنت سأثبت أنني مستحق للغفران، طالما أنني لاحظت أن كل حجر قُذِف كان يحررني من صخرة ثقيلة من خطاياي.. ولكنكما لم تمنحاني تلك الفرصة، أنت وأنطونيو..".

نقص الجرأة لدى ديفيد كان بلا قرار. إنه أنطونيو بالتحديد من كان عليه أن يُحَدِّثه في هذا الأمر وليس أنا. مشاعر أنطونيو الدينية كانت ذات أهمية أكبر لأنها أعمق من مشاعري، ومن المحتمل أنه قيَّم عقيدة ديفيد بمقياس ملائم أكثر. مقياسي مبني فقط على التدبر والترتيب العقلاني للأشياء، بالتالي قدمت له هذه الإجابة:

"الموت المفروض على الإنسان هو موت بلا معنى. العقاب هو انتقام وليس محوًا للخطايا. وحتى إن كان موتك يستحق العفو أو المغفرة، أليست خطايا القس ورفاقه ستزيد في العدد بقتلك؟ هل تعتقد حقًا أنه سيكون من المبرر أن تتحرر من خطاياك عن طريق خطايا الآخرين؟ أو أن سيدنا ومخلصنا، الذي يعرف أكثر من الجميع مدى ثقل خطايا الآخرين سيسمح لك أن تموت هكذا؟ لا يا

ديفيد. أنت تبحث عن الارتياح في الموت، لأن الحياة عذبتك، ولكنك مخطئ في التفكير أن هذا سيثبت استحقاق الحرية بالبحث عن الانتقام من نفسك. في الواقع، ستكتسب نفسك خطيئة بمثل هذا الموت. خلاصك هو إرادة الله وليس إرادة أنطونيو ولا بارتولوميو".

أدار ديفيد رأسه ونظر لي بعض الوقت في صمت. ثم حَوَّل نظره مجددًا ووَجَّه تحديقته إلى السقف وقال لنفسه:

"بالتأكيد الله لا يرى كل شيء ويظل يتسامح معه!..".

في بعض الأوقات كان يطلب مني أن أقرأ فقرة بعينها من الإنجيل. كان يميل لاختيار فقرات تتعلق بالخطيئة والعقاب والمغفرة.

ولكن أثناء الأيام الثلاثة الأخيرة في القلعة، عندما تعافى بالفعل إلى المدى الذي يُمَكِّنه من الوقوف على قدميه، بدأ أنه فقد فجأة الرغبة في الحديث، وصَمَت بشكل غير متوقع. هو لم يعد يتحدث إليَّ، ولم يعد يجعلني أقرأ له الإنجيل، ولم يعد يقول أي شيء. كان يتناول دواءه بانتظام، وفي النهاية كان يُنَفِّذ كل أوامر أنطونيو بطاعة ومن دون أن يرد، ولكنه تقريبًا لم يعد يتحدث بهذه الطريقة أكثر من ذلك. كان يستلقي على ظهره بلا حراك، وكان يُحدِّق بشدة في السقف العالي متأملاً وحزينًا. كان بإمكاني أن أرى أنه يحاول أن يفهم شيئًا يمزقه، ولكن لم يعد هناك شيء أستطيع أن أساعد به. حاولت أن أعزيه مرة أو مرتين، ولكني شعرت بأنه لم يحب ذلك في النهاية، في هذا اليوم الذي قرر فيه القدر أن يكون آخر يوم لنا معًا، تحدث إلينا مجددًا.

كان المساء يقترب عندما قال لبيبي أن يستدعيني أنا وأنطونيو في غرفته. قابلنا وهو يرتدي ملابسه، كان يجلس على الأريكة العثمانية، وكان وجهه يبدو وكأنه معد لشيء. كان لا يزال شاحبًا، وبالفعل بدا وكأنه متعافٍ تمامًا (ربما لأنه لم يعد راقدًا على السرير).

"أظن أنني ربما فهمت شيئًا". في اللحظة التي خطونا فيها أنا وأنطونيو الغرفة بدأ يتحدث بصوت هادئ، ولكنه بدا لي مبتهجًا قليلاً. لم يُحَوِّل عينيه عنا في بعض الأوقات. وفي بعض الأوقات الأخرى كان ينظر لي نظرة مشرقة واضحة وواثقة، وأحيانًا كان ينظر إلى أنطونيو.
"طوال الوقت كنت أحاول جاهدًا أن أفهم ما كنتما تقولانه لي وما كنتما تُعَلِّمانه لي، ولكن حتى الآن لم أفهم سوى شيء واحد وهو الخوف، لأن قلبي كان شديد السواد، والكلمات التي قلتموها ضاعت بلا أثر في هذا السواد الشديد. بعدما بدأ القس إفرام في رجمي، كان الأمر مثل مصباح الزيت الذي أضيء، وأنير هذا السواد الشديد تدريجيًا. الآن صارت كل كلمة واضحة، الكلمات التي دخلت قلبي حرثت الأرض وتركت أثرها. ولكن فيما يبدو فالعفو والمغفرة شيئان مختلفان. لا يمكن أن يتم العفو عني. إن كان حكم الله حقًا ينتظرني في الحياة التالية إذن عليَّ أن أعرض خطاياي وأفعالي الطيبة أمام محكمة العدل واحدة واحدة. مجموع خطاياي وأفعالي الطيبة سيظل كما هو: لا أحد يمكنه أن ينفي الآخر. المغفرة شيء آخر كما أعتقد. عندما أضيء المصباح في الظلام الشديد رأيت أنني عشت قبل أن أولد وسأعيش بعد موتي. بالنسبة لي كانت هذه هي المغفرة، وبسبب أنني غفرت لنفسي، غفر الله لي، لأنني أدرك أنه طالما أنا حي، تطلب الحياة مني الخدمات. لا أحد آخر يمكنه أن يقدم حصتي من الخدمة. الآن، أنا مستعد للعيش، مستعد أن أحمل خطاياي على ظهري، مستعد

أن أعاني العذاب وأتلقى العقاب في الوقت المناسب، وحتى يأتي هذا الوقت، عندما يرغب الله في موتي، أنا مستعد أن أكون في خدمة الحياة. ولكن لأنني لا أريد أن أخطئ مجددًا، وأن أخلط الخير بالشر، أريدكما أن تفكرا في قراري وتقدما لي النصيحة. أشعر بطيبتكما وأرى رحمتكما، وأثق في حكمتكما. هذا هو قراري الأول: أن أزور الأمير الحاكم، وأن أعترف له، وإن أقبل مذعنًا أي عقاب يفرضه عليَّ، وإن لم يحكم عليَّ بالموت، سأتوسل إليه أن يحررني لأطارد قُطَّاع الطرق عندما أنهي حُكمي".

صَمَت ديفيد، وأنا وأنطونيو كنا نستمع إليه متفكرين لبعض الوقت ولا أحد منا استطاع الحديث. كاد أنطونيو يقول شيئًا في النهاية، ولكن لم يكن لديه الوقت لأننا سمعنا صوت الكلاب وهي تنبح من الخارج. أذهلنا هذا، وقبل أن نُعمِل بديهتنا اندفع بيبي إلى الحجرة.

قال وهو مهتاج: "رأى بيبي جيادًا، السادة البيض يمتطون جيادًا! السادة البيض يحملون أسلحة!".

"من هم هؤلاء السادة يا بيبي"، سألته بأكبر قدر استطعته من الهدوء. "هل هم رجال الأمير؟".

أجابني بيبي: "لا، إنهم سادة غير معروفين، لم يعرف بيبي السادة".

"سأرى من هم"، قلت ذلك وتركت الغرفة من دون أن أنتظر إجابة.

سِرْت في الممرات، ودخلت الغرفة الخارجية عند واجهة القلعة ونظرت من خلال ثقب الباب. وسريعًا وصل حوالي خمسة عشر فارسًا مسلحًا حتى أسنانه إلى البوابة. لم يكن منهم الأمير ولا القس، ولا أحد من أهل البلد، إلا أنني كنت أعرف رجلين، واحدًا منهما كان النبيل الشاب الذي جاء بنا إلى هنا، وقف على رأس المجموعة وبدا أنه قائدهم. لاحظت شخصًا معروفًا ثانيًا بعد ذلك. كنت على وشك أن أتحرك من عند ثقب الباب، عندما رأيت خلفهم فجأة واحدًا من مبشرينا، الأخ تاديو.

على الرغم من أن ظهور فرقة الأمير الحاكم كان غير متوقع، شعرت بحدسي أنه يمكن أن نرى شرحًا طبيعيًا ومحكمًا لهذا. ولكن رؤية المبشر فاجأتني كثيرًا، أسرعت عائدًا، وعندما أخبرت أنطونيو وديفيد بما لاحظته، وافق ثلاثتنا على الفور أن نقبل بمصيرنا، لأنه مقاومة فرقة الأمير الحاكم كانت بلا معنى ومخالفة للقانون. بهذا الاتفاق مع أنطونيو وديفيد، خرجت لأقابل هؤلاء الذين جاءوا لنا، وأخذت معي بيبي.

تَرجَّل النبيل عندما ظهرت، وحيَّاني بإخلاص خجول كما يليق بمعرفتنا القديمة من جهة، وموقفنا الحالي الغريب من جهة أخرى، ثم قال لي:

"أعرف أن قائد عصابة قُطَّاع الطرق هنا. لقد أمرني الأمير الحاكم أن أقبض عليه. لن أنصحكم بالمقاومة، لا تبذلوا الدماء بلا جدوى".

"نحن نرفض تمامًا مخالفة الشرعية. فكرة مقاومة القانون لم تراودنا". أجبت وأمرت بيبي بأن يأخذ الكلاب إلى أحد الأركان قبل أن أفتح البوابة.

عندما دخلوا جميعًا، تعانقنا أنا والأخ تاديو بود.

قدَّر قائد الفرقة الموقف بشكل صحيح، وعندما أدخلته إلى ردهة القلعة، لم يرافقه سوى رجلين بخلاف الأخ تاديو.

قرأ قائد الفرقة أمر الأمير الحاكم على ديفيد، وسلم الأخ تاديو خطاب الأب سباستيان لي ولأنطونيو.

أعتقد أنه من غير الضروري ألا نكرر ما يحتويه أمر الأمير الحاكم وخطاب الأب سباستيان كلمة بكلمة هنا. سأشير بشكل مختصر إلى تلك الأسباب التي أدت إلى إرسال هذه الفرقة والتي أصبح جزء منها واضحًا لنا من الوثيقتين، وجزء آخر مما قاله لنا الأخ تاديو والآخرين.

بينما كنت أنا وأنطونيو نتساءل عن الخطط التي يعدها الأمير وما السبب في عدم مهاجمته لنا، كان هو والقس إفرام يزوران بلاط الأمير الحاكم فيما يبدو ويقدمان شكوى مكتوبة. عرضا الموقف كالتالي – أميرنا كان بارعًا جدًا في هذا – عصابة قُطَّاع الطرق المعروفة، التي كانت تُغِير على جورجيا كلها وتفر لعدة سنوات، ظهرت مؤخرًا في نطاق الأمير، وذَبَحَهم الأمير جميعًا ما عدا القائد، وهو ديفيد، الذي تسلل ولجأ إلى مرتحلين أجنبيين يعيشان هنا. طلب الأمير من الأجنبيين أن يُسَلِّما ديفيد، ولكنهما رفضا، لم يستطع استخدام القوة لأن لدى الأجنبيين وثيقة الحصانة من الأمير الحاكم. أهل البلد أناس صريحون وواضحون، إلا أنهم أرادوا القبض على زعيم قطاع الطرق من وسط الأجنبيين من دون إذن الأمير، ولكن الأجنبيين المتغطرسين، الذين شجعتهم وثيقة الحصانة، قاوماهم بالسلاح. والآن يتوسل السيد المحلي، والقس المحلي والشعب إلى الأمير الحاكم كي يرسل رجاله للقبض على زعيم قُطَّاع الطرق ومقاومة الأجنبيين.

سبقنا الأمير والقس، ولم يختلقا فحسب نسخة مصدقة سيكون من الصعب بعدها تأكيد صحة كلامنا، ولكن أيضًا – والأسوأ على الإطلاق – انغرس سهمهم المغموس بالسم دون قصد في هدف لم يكونوا يدرون عنه شيئًا: اتهموا ديفيد بعبادة الشيطان، ولهذه الغاية قدموا العديد من الدلائل، وفي النهاية أتاحوا الفرصة لافتراض أن أنطونيو أيضًا باع روحه للشيطان، بل إن هذا الأمر مؤكد في هذه الحالة. (في العموم، كانت الشكوى في معظمها متعلقة بأنطونيو،، بينما ذُكِر اسمي بشكل عابر فحسب، وبسبب هذا شعرت أنهم يستهينون بي). وكأنهم يعرفون ماضي أنطونيو، فلا أعتقد أن بإمكانهم إعداد مؤامرة أفضل من هذه.

ولكن في هذا الوقت لم نكن نعرف بعد عن اتهام عبادة الشيطان. جلب قائد الفرقة معه فحسب الأمر بالقبض على ديفيد، بينما جلب الأخ تاديو فقط خطاب الأب سباستيان الذي استدعاني أنا وأنطونيو من دون أن يدعنا نعرف السبب.

كان ديفيد ضعيفًا من المرض، وكان تحت أمرنا، وانطلاقًا من نبله، لم يُقَيِّد قائد الفرقة يديه وقدميه، طلب فحسب أن نطيع كلامه ألا يحاول الهرب.

كان الغسق يحل عندما انطلقنا في الطريق إلى المدينة. لم يذكر أحد الرجل الأسود، ولكن عندما

سرنا مسافة كبيرة من الوادي سمعت أنا وديفيد وأنطونيو نداء الطير الأسود عدة مرات من بعيد، وأدركنا أنه يتبعنا خلسة.

ظل ديفيد صامتًا طوال الطريق كله. ضعيفًا، كان مريضًا ويعاني بسبب الجلوس على جواده لفترات طويلة، ولكنه لم يحاول أن يُظهِر هذا، وكان يمسح العرق خفية من عليه من آنٍ لآخر.

سافرنا سويًا بعيدًا إلى المدينة. وعندما دخلناها، قادت فرقة الأمير الحاكم ديفيد بعيدًا، وأنا وأنطونيو سرنا في الطريق مع بعثتنا إلى جانب الأخ تاديو. ابتسم ديفيد لنا فحسب عندما غادرنا.

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى المعسكر سمعنا أن أنطونيو (أنطونيو فحسب وليس أنا) أُتهِم مجددًا بعبادة الشيطان. إن كان الاتهام اختلاق من أمير جاهل وقس كافر، ربما لم يأبه به الأب سباستيان، ولكن الأمير والقس كانا يكرران ما اعتُبِر في وقته مثبتا عن طريق محكمة التفتيش. تلك الظروف جعلت الاتهام جادًا وخطيرًا بشكل جوهري ولا يمكن علاجه.

بعدها زرت قائد البعثة، وكنت أفكر في أن أقول له كل شيء وأقنعه ببراءة أنطونيو.

ولكن الأب سباستيان استقبلني ببرود، وفي الوقت الذي ذكرت فيه شكوى الأمير والقس قاطعني على الفور.

سألني بجفاف ونظر مباشرة إلى عينيَّ: "أتساءل إن كنت قد قرأت هذه الشكوى؟".

"لا أيها الأب سباستيان، ولكني أعرف ما المكتوب فيها، أعرف هذا الأمير جيدًا والقس أيضًا، صدقني، كلاهما خبيث وماكر وغادر".

أغلق قائد المهمة عينيه وفتحهما مجددًا. كنت أعرف أن هذه هي الطريقة التي يُعَبِّر بها عادة عن نفاد صبره، ثم صمتُّ على الفور. ثم قال لي بهدوء وجفاف كالسابق:

"دعنا نترك الرب ليحكم على ما يحكم فيه الرب. من غير المنطقي أن نبحث عن القذى في عينيَّ شخص آخر. علينا أن نؤمن أن العدالة لا يجب أن تكون مهتمة بالصفات الإنسانية للمدعي، ولكن بالأحرى بالمدى الذي تكون فيه اتهاماته مطابقة للواقع".

"أنا مؤمن أنه لا توجد ذرة حقيقة في الشكوى".

"إن لم تكن هناك ذرة حقيقة في الشكوى، بالتالي لا يوجد شيء لنقلق منه". تحدث قائد البعثة ببطء ومن دون عجلة، وصوته الساكن الجاف بدأ يهزني، كنتيجة لذلك صرت مهتاجًا أكثر مما أكون فيه تحت الظروف المختلفة. "ولكن دعنا نتجاهل الشكوى طالما أنها من اختلاق لرجال خبثاء ماكرين. سأطرح بعض الأسئلة، وسوف تجيبني. ستقول لي الحقيقة في النهاية! سأطرح فقط أسئلة قليلة. ولكن أجبني باختصار وفي الموضوع، من دون إضافة شروح أو آراء شخصية. بالتالي: هل صحيح أم لا أن ديفيد هذا كان زعيمًا لعصابة من قُطَّاع الطرق؟".

"هذا صحيح، ولكن..".

"لا، من دون لو ولكن"، قال قائد المهمة بهدوء.

"هذا صحيح".

"عظيم الآن أخبرني، هل صحيح أم لا أنه كان يخطف النساء والأطفال ويبيعهم كعبيد؟".

"كان يخطفهم سابقًا ويبيعهم. ثم قام بالعكس: كان يشتريهم ويحررهم".

"هل صحيح أنه كان يخطف النساء والأطفال ويبيعهم كعبيد أم لا؟".

عضضت على شفتي.

"نعم، هذا صحيح".

"هل صحيح أيضًا أنك أنت وأنطونيو لم تسمحا لأهل البلد بعقابه؟".

"رغبوا في رجمه حتى الموت، أيها الأب سباستيان..".

"ولكنكما أخذتماه وقدمتما له الملجأ".

"نعم".

"وهناك سؤال آخر: من يملك هذه المنطقة وهذه الممتلكات التي حدث فيها كل هذا؟".

بالكاد كنت قادرًا على الحفاظ على رباطة جأشي.

"أولاً الله، ثم الأمير الحاكم، وفي النهاية الأمير المحلي".

"إذن يبدو أن الأمير المحلي يملكها ولو بنسبة صغيرة على الأقل. ولكنها ليست لك ولا لأنطونيو. إذن لو غضضنا النظر بأي شكل عن الشكوى، ولم نلتفت سوى لإجاباتك سنستنتج: أن صاحب الممتلكات كان يحارب قاطع طريق في ممتلكاته وأنتما – الأجنبيان، الضيفان – أخذتما جانب قاطع الطريق في تلك المعركة".

صرت مهتاجًا بشكل أكبر.

"قاطع الطريق هذا أيها الأب سباستيان أنبل ألف مرة من هذا الأمير الجبان الرعديد الذي يسعى القانون في الدفاع عنه كما أرى!".

دق قائد المهمة بكف يده على الطاولة ووقف. وقفت أنا أيضًا. ولأول وآخر مرة أراه يفقد اتزانه، ولكن هذا استمر للحظة واحدة. عندما بدأ في الحديث، استعاد مجددًا هدوءه وجفافه ورباطة جأشه السابقين.

"يحكم الله علينا وفقًا لما هو بداخل قلوبنا. أما القانون فيحكم علينا وفقًا لما نفعله. ليس مصير أنطونيو هو الموضوع في الميزان، ولكن الاسم الطيب لبلدنا وبعثتنا. عندما بدأتما في دفع الصخرة كان يجب أن تكونا مدركين ساعتها أنكما لن تكونا قادرين على إيقافها قبل أن تسقط في الوادي.

ليس لدينا الحق لأن نعطي لأهل البلد سببًا ليفكروا بسوء عن بلدنا! يمكنك أن تنصرف الآن!".

سريعًا انتشرت أخبار أن قائد البعثة قرر أن يحاكم أنطونيو. في الحقيقة، لم أعتقد هذا لأنني كنت أشك في أن الأب سباستيان لديه السلطة للقيام بذلك، ولكني ظللت خائفًا. استقبل أنطونيو الأخبار بهدوء. كان هادئًا عادة. مصير ديفيد فقط هو الذي كان يقلقه، وبدأ يتحدث إليَّ عن هذا الأمر في عدة مناسبات، هذا الذي دَعَم النية التي توصلت لها في وقت أبكر: أن نطلب زيارة الأمير الحاكم وأن نتوسل إليه من أجل ديفيد.

في المعسكر، وضعوني أنا وديفيد في الغرفة نفسها، التي كان يشاركنا فيها الأخ تاديو، لم أنتبه إلى هذا في ذلك الوقت، ولم أعتبر نفسي أسيرًا تحت العين المُراقِبة للأخ تاديو، ولكن عندما أردت أن أذهب إلى القصر أصبح واضحًا فجأة أنه من غير المسموح لي أن أخرج إلى المدينة. طلبت لقاء الأب سباستيان وأنا ساخط. استقبلني ببرود، كما في المناسبة السابقة، وعندما كان عليَّ أن أخبره بعدم رضاي، أراني من دون أن ينبس بكلمة وثيقة تضفي عليه سلطات غير محدودة، وأظن أنني كنت قد ذكرتها بالفعل. بالتالي كنت مجبرًا بدوري أن أريه وثيقتي السرية التي أعطانيها البلاط في اليوم السابق لمغادرتنا، والتي وفقًا إليها كانت لديَّ السلطة بالتصرف كما أرى أنه مناسب، من دون أن يحاسبني أحد طوال رحلتنا. (لقد أخفيت هذه الوثيقة دومًا، ولكن الآن طالما أن السلطة القديمة أُستبدلَت من وقت طويل، لم يعد هناك جدوى من إخفائها). قرأ الأب سباستيان الوثيقة بحرص، ثم شحب وأومأ برأسه صامتًا.

استقبلني الأمير الحاكم بعد عدة أيام. حَيَّاني كصديق قديم، واستمع إليَّ بانتباه. وابتسم عندما أنهيت كلامي. ابتسم بحزن، وكأنه يسخر من شخص ما، وقال:

"من الصعب مساعدة شخص بعد أن يجد بنفسه طريق الحقيقة". صَمَت لبرهة، ثم حلت محل ابتسامته الحزينة الساخرة ابتسامة واضحة، رَبَتَ على كتفي بطريقة ودودة وأضاف: "سأقوم بما يمكن أن يقوم به أمير حاكم فقير. ربما يمكنني أن أدبر شيئًا".

كنت مقتنعًا من أنه سيحاول، ولكن كان من الصعب القول إن كان سيستطيع فعل أي شيء أم لا.

في الوقت الحالي، كان مصيري كُل من أنطونيو وديفيد سيتقرران بشكل منفصل عن طريق القانون. ولكن إن كان مصير ديفيد واضحًا مسبقًا بشكل أو بآخر، فقضية أنطونيو طرحت العديد من التحديات أمام الأب سباستيان. في البداية، رغب في أن يحاكموا أنطونيو مع ديفيد (يبدو أنه كان لديه تلك الإمكانية في ذهنه عندما قال لي قبلاً في السفينة أن أنطونيو ليس لديه أحد ليحميه هنا)، ولكن السلطات المحلية اعتبرت أنه من غير الصحيح تسليم أجنبي إلى محاكمهم وعهدوا بقضية أنطونيو إلى الأب سباستيان. في الحقيقة، كانت تلك خطوة دبلوماسية، نوع من الإجراء السياسي، يتطلب سلوكًا مهذبًا مقابلاً من جهتنا. تحت تلك الظروف، اعتبر قائد البعثة أنه من المنطقي جدًا ألا يتقرر أي شيء من دون موافقة بلاط الأمير الحاكم. من أجل هذه الغاية دعا الجثالقة[(11)] وعددًا من الموظفين الكبار للأمير الحاكم عدد من المرات. مرة أو مرتين كان يصطحب أنطونيو. في النهاية أقام محكمة سرية وحكم على أنطونيو مجددًا بالإعدام حرقًا. ولكن

لأن ليس لهذه المحكمة سلطة شرعية، فحكمها كان مؤقتًا وتقريبيًا وغير نهائي. لهذا السبب، عندما حكمت المحكمة أشارت أيضًا بأن يعود أنطونيو إلى وطنه، حتى تُعلِن محكمة التفتيش المقدسة الحكم الأخير. كان الأخ تاديو سيسافر مع أنطونيو، ويأخذ معه نص المحاكمة، ووثيقة الاتهام، ونسخة من الشكوى، باختصار سيأخذ وصفًا كاملاً لقضية أنطونيو، وأيضًا رسالة خاصة من الأب سباستيان موجهة إلى قداسته. كان من المحتم على الأخ تاديو نفسه أن يبدو كشاهد في محكمة التفتيش المقدسة.

أخبرني أنطونيو بكل هذا، أخبرني بسلام وهدوء ورباطة جأش، ثم أضاف:

"ولكن الأب سباستيان يخشى أنه طالما أن السلطة المحلية لا يمكن أن تعرف أخبار عقوبتي، فهذا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق غير مرغوب فيه. لهذا السبب أتاحوا لنا، بالاتفاق مع محكمة الأمير الحاكم والجثالقة، الاختيار: إن وافقت على تلقي عقوبتي هنا – بكامل إرادتي وليس عن طريق حكم المحكمة – سيستبدلون السم بالحرق".

ارتجفت. "ثم؟".

"لقد رفضت هذا"، كان أنطونيو يتحدث وكأنه يناقش موضوعًا بسيطًا وغير مهم. "أولاً، أنا أفضل أن أموت في وطني وليس في بلد غريب. ثانيًا، لا أعتقد تمامًا أن تلقي السم سلوك مُبَرَّر أمام الله. وثالثًا والأهم، طالما كانت لديَّ الفرصة، أشعر بالواجب لقبول نفس الحكم الذي تجنبته في وقت ما بسبب جبني".

أنا أيضًا فضلت أن يعود أنطونيو إلى الوطن، ولكن لسبب مختلف تمامًا: في الحقيقة كان لديَّ أمل، كان صغيرًا وواهنًا وضعيفًا، ولكنه مع ذلك أمل في أن ينقذه أصدقاؤه وأقاربه مجددًا.. بنفس الطريقة السابقة. من يدري، ربما لا يكون هذا أملاً، وإنما الأنانية الممتدة بعمق في طبيعة الإنسان الذي يهتم بطمأنينته ويُفَضِّل ألا يرى موت شخص عزيز ومحبوب بعينيه.

السفينة التي كان سيسافر فيها أنطونيو والأخ تاديو كان ستغادر في غضون ثلاثة أسابيع.

بدأت أيام الانتظار الصعبة وغير المحتملة. كنت أمضي بمزاج سيئ ولم أكن قادرًا على الاستقرار. كان أنطونيو هادئًا، يصلي في النهاية في كل صباح ومساء، يُعِدُّ نفسه للرحلة والمحاكمة بكل الطرق ليهدئني. كانت مسألة ديفيد تقلقه كالماضي، كما كانت تقلقني، ولكن لا أحد منا كان يستطيع أن يقوم بشيء آخر: في النهاية، لم يكن بإمكاني أن أذهب مجددًا للأمير الحاكم!

مَرَّت عدة أيام على هذا الحال.

في إحدى الليالي، وأنا أسير في الفناء قبل أن أذهب إلى النوم، سمعت فجأة نداء من الطير الأسود من الجانب الآخر من السياج. فزعت ودق قلبي بقوة في صدري. نظرت حولي بحرص وعندما أدركت أنه لا يوجد أحد بالجوار، أسرعت إلى مصدر الصوت. فقط عندما أصبحت قريبًا جدًا استطعت أن أميز سواد بيبي في الليل المظلم.

همست وأنا غير قادر على إخفاء اهتياجي: "بيبي!، كيف حضرت إلى هنا؟".

أجاب بيبي بفخره المعتاد، مُظهِرًا أسنانه البيضاء: "بيبي يعرف!". ثم خفض صوته: "يجب على السيد الأبيض أن يخبر بيبي: هل صحيح أم لا أن الموت ينتظر صديقك؟".

بعد وقت قصير كنت أعرف جيدًا بالفعل كيف يمكنني أن أجيب عن السؤال، طالما أن كل شيء أصبح واضحًا من وقت طويل، ولكن في هذا الوقت لم يكن باستطاعتي أن أتنبأ أن هناك أشياء عديدة معتمدة على إجابتي. لم أستطع أن أخرج جملة أنطونيو من عقلي. في بعض الأحيان كان بإمكاني أن أرى بوضوح مخيف الألسنة الشريرة المومضة للَّهب تتلوى كالثعابين، وألم الضعف الذي هو أكثر الآلام سريانًا بين الكل يمضي في جسدي كله كمكواة الوشم. الآن، عندما ذكر بيبي موت أنطونيو، احترق قلبي وحزن، وأجبت من دون تفكير:

"هذا صحيح يا بيبي".

"لا بد أنهم سيحرقون صديقك في النار؟"، سألني بنبرة خائفة وفي نفس الوقت غير واثقة.

"نعم يا بيبي". أجبت وكنت متفاجئًا جدًا من كون بيبي يعرف الكثير.

ومضت عينا الرجل الأسود للحظة كالجمر في ليلة مظلمة.

"إذن سيد بيبي سيساعد صديقك!".

هنا أدركت كيف كان من المفترض أن أجيب عن سؤال بيبي الأول! كل مهارتي الدبلوماسية، التي استخدمتها بكثافة مع الموظفين الكبار في بلدي والبلاد الأخرى، حلَّت عليَّ لأتحدث بها الآن مع هذا الرجل الجاهل. ولكني كنت فشلت في إدراك هذا في وقتها، وكنت بالفعل قد ارتكبت خطأ لا يمكن تصحيحه.

"ولكن أليس سيدك في السجن؟"، كنت مذهولاً.

"سيد بيبي سيخرج من السجن!". أجاب بيبي بفخر.

"كيف سيخرج؟"، سألته من دون تفكير، ووومض الندم في مكان ما في خلفية عقلي بعد زيارتي الأخيرة للحاكم.

"بيبي يعرف!"، قال بيبي. وفي كل الأوقات التي قال فيها بيبي إنه يعرف، كان يعني هذا أن الموضوع منتهٍ.

قلت له: "لا يا بيبي، أنطونيو لا يرغب في..". انعقد لساني وسرى الخوف في قلبي. لا. كان من الواضح أن أنطونيو لا يرغب في ذلك، وسيكون دنسًا من جانبي أن أثير الشكوك عن هذا، ولكن هل كان صحيحًا أن أقول إنه لا يرغب في ذلك؟.

"سيأتي بيبي مجددًا". تركني بيبي أعرف إذن، واختفى قبل أن أفكر في أي شيء.

خطوت في الفناء لبعض الوقت وأنا مضطرب، ثم عندما هدأت قليلاً، ذهبت إلى غرفتنا، ولكن

الأخ تاديو لم يكن نائمًا، ثم أخبرت أنطونيو عن لقائي مع بيبي فقط في اليوم التالي، صار أنطونيو مهتاجًا، حتى إنه عاتبني على تسرعي وحاجتي للحكمة. في النهاية قررنا أنه لو عاد الرجل الأسود، كما وعد أنه سيفعل، سنتقابل معه مجددًا وندع ديفيد يعرف بالضبط لِمَ عليه أن يتخلى عن نيته.

وبعد ثلاثة أيام، وفي منتصف الليل، سمعت أنا وأنطونيو صوت الطير الأسود مجددًا، فتسللنا من الغرفة وتوجهنا بحرص نحو السياج، ولدهشتنا قابلنا هناك ديفيد مع الرجل الأسود. لا أعرف إلى هذا اليوم إن كان سبب تحرير ديفيد هو لقائي مع الحاكم أم لمهارة بيبي.

ديفيد كان في مزاج سيئ. حَيَّانا مكتئبًا، وفي الوقت الذي أنهى فيه تحياته، أكد نيته على الفور، التي تركنا نعرفها مؤخرًا عن طريق الرجل الأسود. كان بالفعل يعرف كل شيء بالتفصيل: حُكْم المحكمة، واليوم الذي سترحل فيه السفينة، ووقت مغادرة أنطونيو. كان يعرف كل شيء، وقام بإعداد خطة؛ سيتم اختطاف أنطونيو وهو على وشك الصعود على متن السفينة.

رفض أنطونيو على الفور خطة ديفيد تمامًا، وبنبرة حادة وقوية. "ليست من شأنك أن تقلق عليَّ، أنصحك أن تقلق على روحك".

كنت مقتنعًا بأن بعد مثل هذا الرد سيصير ديفيد مجبرًا على التخلي عن نيته، ولكني كنت مخطئًا عندما استمع إلى رد أنطونيو، ظل صامتًا لفترة، ثم حزينًا، ولكنه أخبره بنبرة عنيدة بشكل غريب:

"بغض النظر عما تقوله، وبغض النظر عن مدى الغضب الذي ستصل إليه، سأستمر في تنفيذ نيتي. لقد تعلمت الصبر منك، ولكني أرى أيضًا أنهم في هذا العالم لا يطاردون الكذابين كما يفعلون مع من يقولون الحقيقة".

لجأ أنطونيو إلى المكر عندما لم يستطع التغلب على عناد ديفيد.

قال له: "لن يجرأوا على معاقبتي، لقد مرروا هذا الحكم فقط لإخافتي، ولكن أصدقائي ومعارفي لن يتخلوا عني بهذه السهولة أمام أي أحد".

كانت ليلة ظلماء، ولكني لاحظت كيف استقام ديفيد فجأة عند سماع هذا، كيف فَرَد كتفيه وكيف عاد تكبره اللا مبالي. وبنبرة غريبة تتضمن في الوقت نفسه الفظاظة والمرارة قال:

"كم هو أمر سيئ يا أنطونيو أن تستمع إلى رجل أمين وهو يكذب! سأمضي في طريقي".

قال هذا، ثم تلفت حوله وغادر سريعًا. وتبعه بيبي على الفور.

أغاظت تلك المسألة أنطونيو. كان مضطربًا، ولم يستطع البقاء ساكنًا، قَلَّب في عقله ليجد طريقة للحل، ولكنه لم يستطع الوصول إلى شيء؛ كان مقتنعًا بأنه لو استطاع رؤية ديفيد مرة واحدة أخرى، يمكنه أن يجعله أن يتخلى عن نيته، ولكن أين يمكنه أن يراه؟ فقط إن ظهر وفقًا لرغبته، بخلاف ذلك لسنا نحن فقط الذين لا نعرف مكانه، ولكن تقريبًا لا أحد آخر في هذا البلد يعرف.

للحديث بصراحة، عليَّ أن أعترف بأنه في أعماق قلبي كنت سعيدًا بقرار ديفيد الصارم والعنيد.

أعتقد أنني أفهم ما هو الواجب والتمزق الأخلاقي، ولكن فكرة أنه هناك إمكانية لأن يهرب أنطونيو من الموت جعلتني أنسى كل شيء.

بشكل واضح، لقد أخفيت بهجتي عن قصد وحاولت ألا أظهرها بكل الطرق.

كلما اقتربنا من موعد مغادرتنا، تزايد اهتياج أنطونيو.

في اليوم السابق لمغادرته، قام من على سريره متعبًا وشديد الشحوب. لقد قضى ليلة مؤرقة. لم يكن يتحرك كثيرًا، لم يكن يخطو هنا وهناك، ولكني شعرت أنه لم ينم.

بعد الإفطار ذهب لمقابلة الأب سباستيان. عند عودته كان كالمسرنم حتى الظهيرة. مرتبكًا، يخطو هنا وهناك، أفكاره كانت شاردة، عندما أقول شيئًا له، يكون عليَّ أن أكرره على الأقل ثلاث أو أربع مرات قبل أن يسمعه. يمكنك أن تعتقد أن روحه انتُزِعت وجسده بقى تحت رحمة القدر. أنا بالطبع ربطت كل هذا بمغادرته في اليوم التالي ولقائه الحتمي مع ديفيد، ولم تراودني فكرة أنه في هذا الوقت كان اتخذ بالفعل قرارًا آخر.

دعاني بعد الظهر وبدأ الحوار. لم يكن الأخ تاديو في الغرفة في هذا الوقت. تحدث إليَّ لبعض الوقت، ثم فتح صندوقًا وأخرج خنجر وحزام ديفيد الفضيين وأعطاهما لي.

"هذان لك يا بارتولوميو".

شعرت بأن الدم ينسحب من على وجهي.

"لم؟ لقد أعطاهما لك كهدية وهما لك. خذهما معك".

"إن أخذتهما، من الذي بإمكاني أن أتركهما معه؟ إما أنت أو عليَّ أن آخذ أغراض ديفيد إلى..". وأضاف فجأة: "احرص على ديفيد".

شعرت بوضوح وبقوة الآن أين كان ولم، وتمزق قلبي، ولكني حاولت أن أبقى هادئًا. أخذت الحزام والخنجر ووضعتهما بعيدًا.

جلسنا لساعتين أكثر وتحدثنا. كانت تلك ساعات بشعة.

حل المساء الآن. دخل الأخ تاديو الغرفة وأخبرني أن الأب سباستيان يرغب في أن يراني. كان الأخ تاديو يحمل قارورة وآنية شُرْب صغير في يده.

بدأ الأب سباستيان في الحديث في أمور عامة. لم يفاجئني هذا. فكرت أنه من المحتمل أن يكون لديه شيء مهم ليقوله، وكما هي عادته، كان يقترب من ذلك من مسافة. تحدثت إليه بهدوء وانتظرته لتغيير الموضوع. وفي الوقت نفسه كنت أفكر في أنطونيو.

جلسنا بهذه الطريقة لحوالي نصف ساعة. وفُتح الباب فجأة، ودخل الأخ تاديو وحدَّق بصمت في الأب سباستيان. لم أفكر في أي شيء ساعتها، ولكني عندما نظرت إلى وجه الأخ تاديو، تسلل خوف غريب وغير مفهوم في جسدي وأرعشني.

وقف الأب سباستيان وتوجه إلى الباب دون كلمة. وتبعه الأخ تاديو.

كان أنطونيو مستلقيًا بسلام على أريكته العثمانية. أغلق الأخ تاديو جفنيه وغطاه بالكفن. وأخذ القارورة والآنية.

رسم الأب سباستيان علامة الصليب وأنزل رأسه.

من الصباح وحتى مساء اليوم التالي شعرت بوضوح – في قلبي، وفي عقلي، وفي جسمي كله، وفي كل ضلوعي، بوضوح وتميز وكأني استطيع أن أراه بعيني وألمسه بيديَّ – بضجيج بيبي قريبًا، رغم أنه غير مرئي، وغير مُشاهَد. في بعض الأحيان ألف رأسي سريعًا نحو المكان الذي أظن أنه سيكون فيه، وأندهش لأنه غير موجود.

في أول ضوء للنهار قبل أن يُدفَن، عندما ارتفعت الشمس، وانبعثت الرائحة المسمومة للدفء، كان من الممكن الاستماع فجأة إلى صوت الحوافر، وبعد ثانية، جاء فارس مندفعًا كالسهم خلال البوابة المفتوحة. كان العديد من الناس يضجون في الفناء في هذا الوقت. لم يكونوا يعرفون ديفيد وصاروا مجمدين من المفاجأة، وبدأوا في التحديق فيه بمثل تلك الوجوه، أعتقد أنهم لم يصدقوا أنهم يرون شخصًا حقيقيًا. كان ديفيد يجلس على حصان أبيض، منتصبًا كالرمح القديم، جسده كله مائل قليلاً للوراء، ومائل قليلاً على أحد الجانبين. كان يلبس رداء شديد الاحمرار على صدره، وخصلاته الذهبية كانت متناثرة على جبهته، وكان يشبه إلهًا غاضبًا.

أوقف حصانه فجأة بجانب المبنى. قفز إلى أسفل، بحث عني، وأمسكني سريعًا وبقوة من ساعدي حتى توقف سير الدماء فيه، وسألني:

"أين هو؟".

أجبت وأفسحت الطريق: "تعالَ".

كل هؤلاء الذين شهدوا هذا الحدث لا يزالون واقفين مندهشين غير رابطي الجأش.

بدا أنطونيو وكأنه نائم.

كان هناك كاهنان يجلسان على رأسه نظرا إلينا عندما استمعا إلى صوت خطواتنا، ورسما علامة الصليب عندما رأيا ديفيد.

نظر ديفيد إلى أنطونيو. نظر إليه لوقت طويل في صمت ولم تتقلص عضلة في وجهه المتجمد. التف في النهاية، وتبعته. وعندما وصلنا إلى العتبة، قال لي بهدوء، ولكن بلهجة أشبه بضربة السوط في الهواء الساكن:

"لا تُخفِ عني شيئًا يا بارتولوميو".

بعد موت أنطونيو كان كل شيء فوضويًا في ذهني، كنت أرتجف بشدة وغير قادر على السكون. من الصعب في مثل هذه الأوقات أن تتوقع من شخص أن يفكر بوضوح وأن يعرف بالضبط ما الذي

ينبغي فعله. ربما يكون هناك شخص أكثر خبرة مني يستطيع أن يُلبِس الحقيقة الشريرة ثوب الكذب الجميل، ولكني لم أستطع، أعدت عليه كل شيء كما حدث. وأخبرته أن أنطونيو غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة وقرر أن يتلقى السم، وأن يُحبِط فرصة اختطاف ديفيد، وأن ينقذه من ارتكاب خطيئة جديدة.

ديفيد كما هو واضح كان يستمع إليَّ بهدوء. لم يجب، قبض بصمت على لجام الحصان وتوجه ببطء على قدميه نحو البوابة، حيث كان ينتظره بيبي على الجانب الآخر من السياج. فقط عندما اقتربنا من البوابة تحدث. توقف، ولكن لم ينظر إليَّ، وقال ببطء وتفكير:

"ربما يكون كل هذا عبث محموم! ربما لا يوجد شيء على الإطلاق! ربما البلد كله في سكرات مرض خطير وكل شيء – الخطيئة، الفضيلة، الحياة، الموت، الله، الإنجيل، الواقع، الأحلام – كل شيء مجرد اختلاق من عقل مريض!".

"لا يا ديفيد". أجبته وشعرت بألمه بداخلي، "ما تقوله هو صوت اليأس وليس الحقيقة. عقل الإنسان هو الذي يعاني سكرات مرض خطير، ولكن هذا المرض ليس بلا قرار ولا هو حَرِج. سَقَط الإنسان من الانسجام مع العالم وظل وحيدًا. للعديد من القرون كان يبذل مجهوداته في محاولة استعادة ذلك الانسجام. وسوف يستعيده آجلاً أو عاجلاً. ولكن حتى ذلك الوقت، ستظل أعمال الطيبة والشر دومًا تبدو اعتباطية أمامنا".

"إذن فأنطونيو ميت حقًا.."، قال ديفيد ذلك فجأة وصَمَت. ثم أدار رأسه ونظر إلى عينيَّ واستمر: "أنت رجل ذكي جدًا يا بارتولوميو، أنا لا أفهم الكثير مما تقوله لي، ولكن في شيء مختلط مثل هذا، كيف أميز الخير عن الشر بحق الله؟".

"الخير والشر متمايزان من البداية، طالما أن كل شخص موجود هو روح تلهمها الله. عندما كنت ترتكب الشر، هل تعتقد حقًا أنك كنت تفعل هذا لأنك غير قادر على تمييز الخير عن الشر؟ كنت تعرف ساعتها كما تعرف الآن ما هو الشر وما هو الخير. إن التمييز بينهما سهل، بينما الاختيار بينهما صعب. عندما يكون الأمر مسألة اختيار، نصير مرتبكين، طالما أننا لدينا رغبات من الشيطان".

خرجنا من البوابة. وامتطى ديفيد وبيبي حصانيهما.

"عندما يبدو الخير والشر اعتباطيين أمامنا يا بارتولوميو، ربما يجب أن يصير الانتقام هو طريق الحق".

بتلك الكلمات نخس حصانه بكعبه واختفى الاثنان سريعًا من أمامي.

استعدت كلمات ديفيد عدة مرات في هذا اليوم. وكلما استعدتها، كلما صرت متشككًا من أن لها دلالة خطيرة. هذا الشك تأكد أكثر بحقيقة أن ديفيد استعاد بشكل غير متوقع منظره المبكر.

نمت بشكل سيئ في هذه الليلة. كنت مضطربًا عندما استيقظت في الصباح. كلمات ديفيد كانت تدور في رأسي وخوفي واهتياجي كانا يتزايدان تدريجيًا. في النهاية، استعدت كلمات أنطونيو:

"احرص على ديفيد"، لم أنتظر الدفن ورحلت.

دفعت حصاني قُدُمًا من دون أن أستريح، ووصلت إلى الوادي في الظهيرة.

عندما وضعت قدمي على الجبل، توقفت لوقت قصير ونظرت بعينيَّ إلى المكان. كان هاجسي الأول يأكل قلبي، ولكني لم ألاحظ شيئًا مثيرًا للريبة وهدأت قليلاً. تجنبت القرية مخافة أن أقابل أي شخص، وتوجهت مباشرة إلى قلعة ديفيد.

كانت البوابة مفتوحة. كان هناك بغل مقيد بالفناء. كان هذا غير متوقع، لبعض الوقت نظرت إليه من دون فهم. قبل أن أستطيع فهم أي شيء من هذا، فُتح باب القلعة وخرج رجل غريب. كان يرتدي زيًا كهنوتيًا طويلاً، وصليبًا ضخمًا معلقًا حول رقبته. كان متوسط الطول، نحيلاً، ولكنه قوي وشديد البنية. كان شعره ولحيته أسودين. كان لديه عينان بنيتان هادئتان. عندما نظر إليَّ ارتجف قليلاً ونظر إليَّ بحرص. وقال في النهاية:

"من المؤكد أنك بارتولوميو..".

"أنا بارتولوميو"، أَكدْتُّ ذلك ونظرت تجاه باب القصر الذي تركه مفتوحًا. "أنت..".

"أنا القس، مر أسبوع منذ عُيِّنت في هذا المكان، إن كنت تبحث عن ديفيد فهو ليس موجودًا هنا".

قلت من دون تفكيرك "إذن أين هو؟".

نظر إليَّ القس. وومض الاهتمام للحظة في النظرة الهادئة لعينيه البنيتين.

"لا أعرف..."، تجنب عينيَّ. وظل لبعض الوقت صامتًا. وأكمل: "لقد ظهر في ظهيرة الأمس. لم أره بنفسي، أخبرني بذلك آخرون. واختفى مجددًا في الليل". نظر إليَّ مجددًا، وأكمل أثناء نظره: "الأمير والقس السابق إفرام اختفيا".

ارتجفت، وبدا ديفيد أمام عينيَّ ممتطيًا حصانه الأبيض، بمنكبيه العريضين مع خصلاته الذهبية الطافية، منتصبًا كالرمح، وجسده كله مائل قليلاً إلى الخلف، ومائل قليلاً على أحد الجانبين. إله وثني: متكبر، أسنانه ظاهرة، يسعى إلى الانتقام.

صمتنا لبعض الوقت.

قلت في النهاية: "سيأخذهما إلى آخالتسيخ".

"هذا هو ما كنت أفكر فيه أيضًا". أجاب القس وعيناه البنيتان تُحَدِّقان فيَّ بهدوء. "فكرت في ملاحقته، ولكن بعد ذلك غَيَّرت رأيي مجددًا، فلا معنى من هذا..". بتلك الكلمات هز رأسه ببطء وبتمهل. "إنها فقط البداية.. حتى الآن، تتطلب العدالة الدماء، كما تتطلب الظلم".

حل الصمت مجددًا لبعض الوقت. ثم، عندما توجه القس نحو بغله، سألته:

"كيف خاطرت وأتيت إلى هنا وحدك؟".

تفاجأ: "لِمَ؟ لقد أمر الأمير مبكرًا بقتل الكلاب".

"ماذا لو قابلت ديفيد؟".

نظر القس لعدة لحظات وظلت عيناه مركزة عليَّ، ثم سألني بهدوء:

"هل تعتقد حقًا أن ديفيد خطر؟". وأضاف بعد صمت قصير: "أهل البلد يتذكرونك أنت وصديقك بحب وتعاطف. أظن أنه يدعى أنطونيو، أليس كذلك؟".

أجبت: "كان يُدعَى كذلك، لقد دُفِن اليوم". وعندما رسم القس علامة الصليب على نفسه ونظر إليَّ بانتباه وتوقع واضحين، امتلأت فجأة بمشاعر الثقة نحوه وكأننا صديقان قديمان، وأخبرته بكل شيء في وقت قصير.

"ما الذي ترغب في عمله الآن؟".

"عليَّ أن أنتظره، إن كان حيًا سيظهر".

"ألن تأتي إلى القرية؟".

"سأبقى هنا".

حلَّ القسُّ البغلَ.

"إذن سوف أزورك غدًا بعد القداس".

كانت القلعة قد نُهِبَت. بدا أن مَن قتل الكلاب قَلب المكان رأسًا على عقب أملاً في أن يجد شيئًا.

جاء القس بالفعل في اليوم التالي. جلب معه بعض المؤن. بعد ذلك كان يأتي يوميًا تقريبًا، وأحيانًا يبقى حتى المساء. كان رجلاً ذكيًا، تحب أن تتحدث معه، لديه أخلاق عالية وعظيمة.

في هذا الأثناء كانت الأوقات تمر، ولكن لم نسمع شيئًا عن ديفيد وانحسر أملنا وتلاشى تدريجيًا.

ولكن في إحدى الأمسيات، وقت شروق الشمس، فُتِحَت البوابة ودخل ديفيد الفناء.

تيار من البهجة الصافية وموجة غامضة من الخوف فاضا في قلبي في الوقت نفسه. كان ديفيد على قدميه. كان يرتدي حذاءين جلديين، وقفطانًا من الصوف الخشن.

صحت باهتياج: "ديفيد!".

ابتسم ديفيد، ولكن كانت هناك كآبة في عينيه وبدت ابتسامته حزينة: "كنت أبحث عنك في المدينة يا بارتولوميو، ولمَّا لم أجدك، عرفت أنك ستكون هنا".

حاولت أن أخفي كلاً من بهجتي وخوفي. نظرت في عينيه وسألته:

"أين الأمير والقس؟".

حوَّل ديفيد نظره، ثم قال بهدوء:

"دعنا ندخل".

عندما رأى الفوضى في ردهات القلعة، ساد ملامحه حزن شديد وعظيم، شوّه جماله البهي في لحظة واحدة. في النهاية. وعندما دخلنا الردهة الرئيسية سألته مجددًا:

"أين الأمير والقس يا ديفيد؟".

"إنهما على السفينة.. دعنا نجلس لبرهة". بتلك الكلمات جلس على الأريكة العثمانية وأضاف: "ربما يكونا بالفعل على السفينة الآن".

لم أُحَوِّل نظري من عليه.

"هل بعتهما؟".

نظر ديفيد إليَّ.

"من الأسهل أن تحكم على الأمور يا بارتولوميو، من أن تنظر إلى روح الإنسان. إن الانتقام يُهَدّئ الروح. كنت أبحث عنك في المدينة ولمَّا لم أجدك جئت إلى هنا لأزورك، لأنني لم أَرِد أن أرحل من دون أن أراك".

سألته مندهشًا: "إلى أين ستذهب؟".

حَوَّل ديفيد نظره. والآن شرد في أفكاره، كان يحدق في مكان ما خلفي وظل صامتًا لوقت طويل. صار متجهمًا ومغمومًا، كالسماء التي تُنذِر بطقس سيئ. أشار وجهه إلى أن هناك شيئًا يجعله يتردد، وفي النهاية بدأ يتحدث بهدوء، وهو منغمس في أفكاره:

"أنت رجل هادئ وذكي يا بارتولوميو، وربما تقيس آلام الناس الآخرين بآلامك. بالنسبة إليَّ، فقد أخرجني أنطونيو من هاوية وألقاني في أخرى، حيث تصعب مشاهدة آلام الآخرين، وفي المقابل من السهل أن أتحمل ألمي. أنا لا أخشى ذلك، طالما أن خطاياي تتجاوز كل أنواع الآلام، ولكني أدركت بعد موت أنطونيو أن هذا الانتقام واجب. يستحق الإنسان التمزق وليس الشفقة. في البداية قصدت أن أربط سِلْفي وقسه بذيل حصاني وأن أسحلهما حتى يموتان". عندما قال هذا لمع وميض للحظة في عينيه. "سيكون هذا أمرًا طيبًا، ولكني فهمت فجأة أنني لم أعد قادرًا على قتل إنسان. بالتالي أرسلتهما في طريقهما إلى آخالتسيخ وبعتهما لأحد الأتراك من أزمير. لا يوجد جدوى من النظر إليَّ معاتبًا، ربما لا أكون قد تصرفت بهذا العدل طوال حياتي. بهذا المال حررت أمًا وطفلاً.. الأم لم تكن سوى فتاة، كانت ملابسها رثة، وشعرها منكوشًا، ووجهها يُظهِر خيبة الأمل.. كانت جميلة يا بارتولوميو، ومجروحة كأيقونة تم تشويهها. كان الطفل في حوالي الثالثة من عمره، يجلس كحمل في حِجْر أمه، لا يعرف ما الذي يحدث وينظر كأنه ملاك مندهش، يعطيك الانطباع بأنه لم يشاهد مثل هذا الكم المتنوع من الناس.. عندما جاء شارٍ محتمل، أمسَكَت الأم

بطفلها في حضنها، وغطته، وكأن لهذا أي جدوى..". بتلك الكلمات وقف فجأة وغير من نبرته: "أردت أن أقول لك هذا يا بارتولوميو، عليَّ أن أرحل". وتوجَّه إلى الباب.

"إلى أين ستذهب؟".

"أريد أن أقترب منك مثل أنطونيو. ولكن في الموت كل إنسان هو رب نفسه وسيدها".

عندما خرجت إلى الفناء سألته:

"بيبي؟ أين ذهب بيبي؟".

"لقد تركت بيبي يرحل.. بيبي رقيق القلب، ولكنه ماهر جدًا. سيحيا. لقد عهدت به إلى تاجر أعرفه وتركته يرحل.. ارحل في سلام يا بارتولوميو!".

بتلك الكلمات التف وغادر. لم ينظر وراءه، سار ببطء، ولكن بخطوات ثابتة وحاسمة. ترك الفناء، تبع المنحدر، ثم اختفى في الغابة.

لم أنم للحظة في تلك الليلة، وعند الفجر، من دون أن أقصد، كنت أنتظر سماع نداء الطير الأسود في أي وقت. ولكن انتظاري كان بلا جدوى، وعندما جاء القس في اليوم التالي، كنت مستعدًا بالفعل للرحلة. اصطحبني القس إلى حافة الوادي عندما صعدنا إلى التل، رسم علامة الصليب عليَّ، وحَوَّل اتجاه بغله ومضى بطيئًا في المنحدر. حدقت في ظهره، وفي قلبي كان الحزن والبهجة يتصارعان.

ثم نظرت إلى التل العالي على حافة الوادي، والذي كان مغطى بالغابات الكثيفة الغامضة غير المسكونة.

في ذلك العام ارتحلت إلى عدد من المناطق الأخرى في جورجيا، وفي ربيع العام التالي عدت إلى وطني.

هوامش الكتاب

(1) كولخيس Colchis إقليم في غرب جورجيا.

(2) إيبريا Iberia، شبه جزيرة تقع حاليًا في جورجيا، وقد كانت مملكة في العصور الوسطى.

(3) بحارة الأرجو Argonauts أبطال بحارة في الميثولوجيا اليونانية القادمة، اصطحبوا البطل جيسون إلى كولخيس بحثًا عن "الصوف الذهبي" رمز السلطة.

(4) أبولونيوس الروديسي Appollonius of Rhodes شاعر يوناني يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهو الذي كتب قصة جيسون وبحارة الأرجو.

(5) الفريسيون Pharisees حركة يهودية دينية وسياسية ظهرت في فلسطين في القرن الأول، ذِكْرهم في العهد الجديد من الكتاب المقدس كان يعيب عليهم التمسك بالحرف بغض النظر عن المعنى.

(6) الإشارة إلى يوحنا كاتب الإنجيل الرابع من الكتاب المقدس، والآية المذكورة من إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، عدد 5.

(7) آخالتسيخ Akhaltsikhe مدينة تقع بجنوب غربي جورجيا.

(8) قصة "الابن الضال" من أمثلة المسيح بالكتاب المقدس، وذكرت بإنجيل لوقا، عن ابن يحصل على ثروة والده ويذهب ليبددها ولكنه يعود نادمًا إلى أبيه الذي يستقبله محتفلاً، القصة تعبر عن غفران الله لخطيئة الإنسان.

(9) الجملة الأخيرة منقولة من الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح الأول، آية 10، والجملة ختمت قصة زكا العشار المذكورة، يدعو المسيح نفسه إلى بيت زكا العشار المكروه من الجمع، وتشير القصة، إلى جانب قصة الابن الضال، اهتمام المسيح بالخاطئين الساعين إلى التوبة.

(10) إنجيل متى هو أول إنجيل ضمن الأناجيل الأربعة بالكتاب المقدس.

(11) الجثليق Catholicos يكون رئيسًا لعدة كنائس في بعض التقاليد المسيحية الشرقية.

الكتب خان للنشر والتوزيع
13 شارع 254 – دجلة – المعادي – القاهرة.
تليفون : 20225196569+ - 20225170678+
بريد اليكتروني:info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

عزيزي القارئ- يسر «الكتب خان» أن تضع بين يديك رواية تنتمي إلى الثقافة الجورجية، وتعبر عن هذه الثقافة في عصرين مختلفين، القرن العشرين الذي كتبت فيه الرواية، والعصر الوسيط الذي دارت فيه أحداثها.

تصوّر رواية "أنطونيو وديفيد" المجتمع الجورجي في العصر الوسيط، الذي يعاني من داخله من التعصب الديني ومحاكم التفتيش، ويضم رجال دين يعتبرون كل الأفكار المختلفة هرطقات، ويعاني من خارجه من الحروب مع المسلمين، ووسط صراعات الداخل والخارج يصبح من الصعب معرفة الإيمان الحقيقي أو السير في الطرق المستقيمة.
السارد في الرواية هو الرحالة والتاجر بارتولوميو الذي ارتحل كثيرًا وقرر في نهاية حياته كتابة ذكرياته عن البلاد التي ذهب إليها والناس الذين قابلهم، تلك الذكريات التي ضمنها في كتابه المزعوم "الحكايات والتقاليد والأخلاق» وصف للبلاد التي ارتحل إليها التاجر "بارتولوميو دانيتي"، ومن بين قصص الكتاب العديدة يحكي بارتولوميو هذه المرة قصة الشخصيتين البارزتين أنطونيو وديفيد.

الناشر

كاتب الرواية جيمال كارتشهادزه (1936-1998) يعتبر من أبرز الأسماء الأدبية الحديثة في جورجيا، رغم أن قصصه وروايته لم تنل الشهرة سوى بعد وفاته، يستعرض كارتشهادزه في الرواية ثقافته اللاتينية واليونانية والمسيحية، ويستخدم أسلوبا أشبه بأسلوب أدب الرحلات، وبخلاف هذا وذاك يكتب عن شخصيات فريدة وكيف تتصرف في ظروف تاريخية مضطربة.

ISBN 978-977-6306-54-7
9 789776 306547

عزيزي القارئ- يسر «الكتب خان» أن تضع بين يديك رواية تنتمي إلى الثقافة الجورجية، وتعبر عن هذه الثقافة في عصرين مختلفين، القرن العشرين الذي كتبت فيه الرواية، والعصر الوسيط الذي دارت فيه أحداثها.

تصوّر رواية "أنطونيو وديفيد" المجتمع الجورجي في العصر الوسيط، الذي يعاني من داخله من التعصب الديني ومحاكم التفتيش، ويضم رجال دين يعتبرون كل الأفكار المختلفة هرطقات، ويعاني من خارجه من الحروب مع المسلمين، ووسط صراعات الداخل والخارج يصبح من الصعب معرفة الإيمان الحقيقي أو السير في الطرق المستقيمة.
السارد في الرواية هو الرحالة والتاجر بارتولوميو الذي ارتحل كثيرًا وقرر في نهاية حياته كتابة ذكرياته عن البلاد التي ذهب إليها والناس الذين قابلهم، تلك الذكريات التي ضمنها في كتابه المزعوم "الحكايات والتقاليد والأخلاق» وصف للبلاد التي ارتحل إليها التاجر "بارتولوميو دانيتي"، ومن بين قصص الكتاب العديدة يحكي بارتولوميو هذه المرة قصة الشخصيتين البارزتين أنطونيو وديفيد.

الناشر

كاتب الرواية جيمال كارتشهادزه (1936-1998) يعتبر من أبرز الأسماء الأدبية الحديثة في جورجيا، رغم أن قصصه وروايته لم تنل الشهرة سوى بعد وفاته، يستعرض كارتشهادزه في الرواية ثقافته اللاتينية واليونانية والمسيحية، ويستخدم أسلوبا أشبه بأسلوب أدب الرحلات، وبخلاف هذا وذاك يكتب عن شخصيات فريدة وكيف تتصرف في ظروف تاريخية مضطربة.

ISBN 978-977-6306-54-7

Table of Contents

أنطونيو
ديفيد
أنطونيو وديفيد